صلاح طاهر

فيلسوف الألوان

چيلان حمزة

مع دراسـة نقـدية

د. جمال قطب



الهيئة المصرية العامة للكتاب

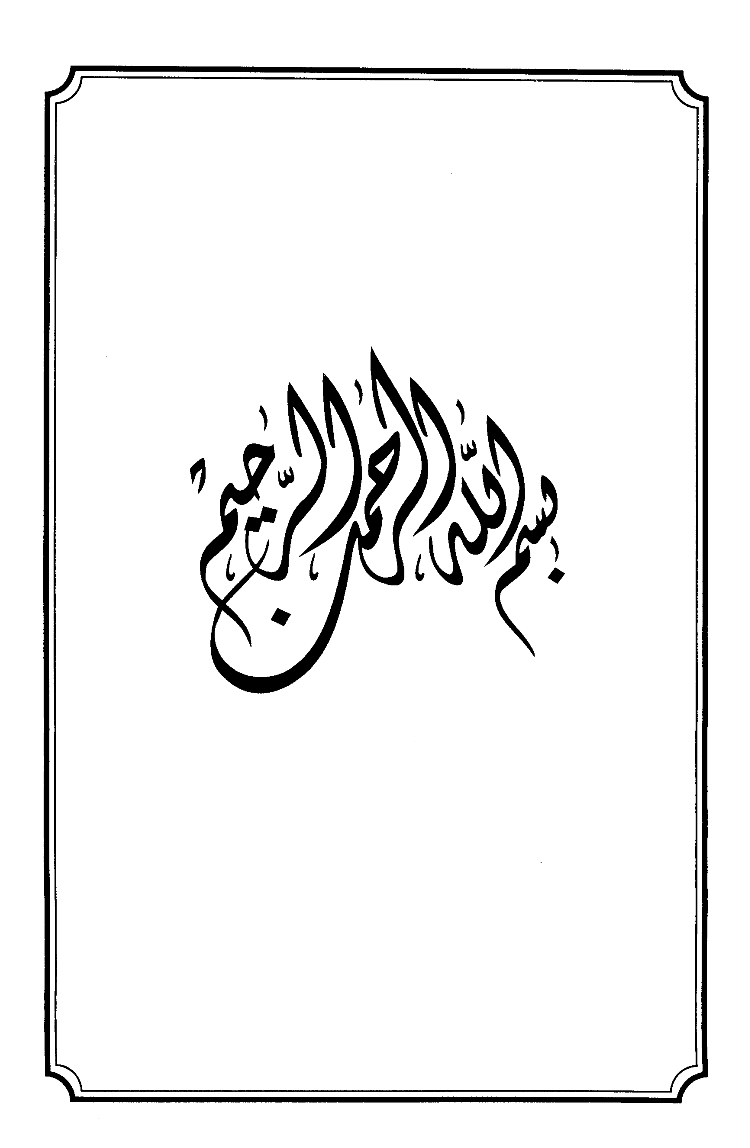
١٩٩٩

الغلاف للفنان:

جمال قطب

الإخراج الفنى والتنفيذ:

صبرى عبدالواحد


بسم الله الرحمن الرحيم

١

ترفق وأنت تدفعه إلى عالم الأحلام

واهمس له بالحب أولاً، وأنت تلاعبه

إنه التبر الذى تلقيه أمام طفلك

ليكمل مسيرة الحياة المقدسة

ج. ح

المقدمة

بقلم الفنان الناقد جمال قطب

إن مادة هذا الكتاب والنهج الذى سارت عليه الكاتبة چيلان حمزة، حدث يدعو إلى التأمل والإعجاب، فهو حديث مسترسل جذاب، ينساب فى وداعة حانية، يداعب وجدانياً قبل أن نستوعبه بأذهاننا! تماما كالفن ذاته نحسه بالعاطفة والبصيرة، وتحار عقولنا فى تحديد مكامن الجمال فى مفرداته ومكوناته؛ فالجمال الفنى ليس واقعا ماديا ذا معايير ومقاييس محددة، ولكن الاستمتاع به وبقيمه الفنية يعتمد أساسا على مدى استعدادنا لتذوقه بعد أن نكون قد هيأنا أنفسنا ودرّبنا حواسنا لقراءة أبجدية واستيعاب مضامينه، وكما قال «كروتشه».

«ليس للجميل جمال فى ذاته، ولكن «الجمال» كامن فى ذواتنا نحن، مرتبط بوجداننا، وليس بحساباتنا العملية أو بفهمنا العقلى»!

وهنا يتدخل عنصر الثقافة الفنية لتمهيد الطريق إلى غاية «التذوق الجمالى» وكما يقول «باش Bash» فى كتابه «الطابع الجمالى وكيف نستوعبه»:

إن نشر المعارض والثقافات المختلفة عامل ضرورى فى المساعدة على التذوق وتدريب «الذات» على البحث عن نفسها :

وهكذا نرى أن الهدف الأسمى لنشر الثقافة الفنية هو تسهيل وتيسير السبل الوجدانية والذهنية لعملية التذوق «الواعى».. فهناك التذوق الغريزى البسيط الذى يعتمل فى نفوس البشر كافة.. ولكن ما نهدف إليه هو أن نرقى بالتذوق إلى درجة «الإدراك الجمالى» الراقى الذى يستوعب الإبداعات الرفيعة.

●● وعلى صفحات كتابنا نرى أنفسنا أمام ملحمة جامعة من الحكايا والذكريات والمواقف والدروس المستفادة من التجارب والممارسات وغير ذلك من الأحداث التى جابهها الفنان فى طريق مسيرته الفكرية الطويلة. ومن خلال أحاديثه الشيقة، تنبثق أقباس كاشفة لكوامن ذاته الفنية المتوازنة المتكاملة.. تلك التى تستمد توازنها وتكاملها من الثقافات المتشعبة التى لاتحدها عوامل التخصص وتتخطى حواجز الزمان والمكان!

هذا هو فناننا صلاح طاهر الذى استطاع أن يعقد مصالحة بين «الذات» والإبداع أو بين الروح والعقل. ولا غرو أنه اليوم قمة شامخة صامدة استطاعت أن تتصدى فى ثبات لمعمعة الصخب وزحام البدع

والمستوردات التى اكتظت بها الساحة الفنية المصرية فى النصف الثانى من القرن العشرين. كما استطاع أن يعيد إلى «الجمال الفنى» قدرا من قيمه الأصيلة التى كادت أن تتميع تحت وطأة النزعات الجامحة والرغبات العابثة التى تهب علينا مع الأعاصير الغربية، فيتغنى بها الدخلاء والأدعياء كنوع من التجمّل والتربح.

وقد انفردت الكاتبة فى هذا الكتاب باستعراض درامى ذاتى رومانسى، فأطلقت العنان لمحدثها ـ وهو فى دائرة الضوء ـ ليجول فى أروقة سنوات عمره.. ويصور لنا أحداث الحياة بشئونها وشجونها فى بانوراما تعبيرية متفردة، تماما كنهجه الفنى المميز من الإبداع الرفيع!

الفرس والحصاد

وإذا كنا بصدد إلقاء الضوء على علم من أعلام الفن المعاصر، فحرىّ بنا أن ننظر فى عجالة إلى مناهل نهضتنا الفنية الحديثة التى انبثقت ضمن حركة التنوير العامة فى أوائل القرن العشرين، بعد غفوة طويلة استمرت قرابة أربعة قرون، جثم فيها على أنفاسنا استعمار بغيض.. عثمانيا ثم فرنسيا وبريطانيا.. إلى أن قيض الله للفن أحد أمراء الأسرة المالكة هو الأمير يوسف كمال، وكان محبا للفن لدرجة الهيام، وقصوره كانت بمثابة متاحف صغيرة تحوى مقتنياته من الفن العالمى لكبار الفنانين.

تولى الأمير إنشاء أول مدرسة عليا للفنون الجميلة فى القاهرة عام ١٩٠٨ وتكفل بكافة نفقاتها ومتطلباتها.. فكانت البداية بعد انقطاع

وتوقف عن الإبداع المصرى منذ الهجمة العثمانية التركية عام ١٥١٧ ... وحتى عام ١٩١١ وهو تاريخ تخريج أول دفعة من مدرسة الفنون الجميلة العليا (وكان مقرها أحد قصور الأمير فى درب الجماميز بالقاهرة) . وكان قد سبق إنشاء المدرسة بعض النشاطات الفنية الأجنبية الاستشراقية Orientalism طوال القرن التاسع عشر.. فكان الإبداع أوروبيا ذا ملامح وسمات والاستلهامات شرقية.. وكان معظمه يذهب إلى العواصم الغربية، وبعضه لخدمة الارستقراطية المصرية وقصور الحكم والطبقات الموسرة، تماما كما دارت أحداث احتفالات قناة السويس عام ١٨٦٩ وما صاحبها من مهرجانات باذخة كان من ضمنها افتتاح الأوبرا على الطراز الإيطالى Scla di Milano .. ليعرض فيها أوبرا ريجوليتو Rigoletto ثم أوبرا عايده.. وكلها تغريب فى تغريب، ولا أثر لفنانينا فى هذه الإنجازات الفنية التى تتخذ من بلادنا مسرحا لنشاطاتها..

●● وبتوالى دفعات الخريجين من مدرسة الفنون.. صار فى الإمكان بزوغ فجر جديد لمدرسة فنية مصرية حديثة، تحمّل جيل الروّاد الأوائل العبء الأكبر فى شق وتعبيد الطريق وتهيئة المواطنين لتقبل هذا «الشيء» الذى لم يألفوه من قبل.. ألا وهو الفنون الجميلة.. وكان من البديهى أن يتولى أمر مدرسة الفنون الجميلة العليا مجموعة من الأساتذة الأجانب.. وأن يكون نظامها وأقسامها على النسق الفرنسى.. وظلت على هذا الحال حتى العشرينات من هذا القرن عندما بدأ تمصيرها وليتولى زمام الأمور مجموعة من جيل الرواد.. وحينذاك بدأت النزعات والاجتهادات المصرية لشباب فنانينا الموهوبين، إلى أن

جاء جيل الوسط أو جيل التمرد فى الثلاثينيات والأربعينيات، ليؤكد استقلالية الطابع المصرى وإثبات الذات الفنية التى استوعبت الإبداعات الغربية لتصيغها إلى أساليب تحمل البصمات المصرية بقدر الإمكان.. وكان ضمن الجيل الواعى المثقف المتمرد.. فناننا صلاح طاهر..

وقد ولدت الحركة الفنية المصرية قوية متفتحة.. وسرعان ما بلغت ذروة نضوجها بفضل هذا الجيل المتمرد الدءوب المحب لفنه ووطنه.. وإذا ما نظرنا إلى نشاطات الخريجين فى تأسيس الجمعيات الفنية منذ الدفعة الأولى التى تزعمها محمود مختار..

وجدنا: جماعة الخيال (١٩٢٧) ـ الدعاية الفنية (١٩٢٨) ـ المجاهدون (١٩٣٤) وهو العام الذى تخرج فيه صلاح طاهر ـ الشرقيون الجدد (١٩٣٧) ـ الفن والحرية (١٩٣٩) ـ الفن المعاصر (١٩٤٦)..

... حيوية ديناميكية تدل على ولاء الفنانين لمجتمعهم، وتفانيهم فى حب الفن الجميل. وبالرغم من أن صلاح طاهر قد آثر الاستقلال بفكره ونشاطه الذاتى عن هذه الجماعات، إلا أنه عايشها وتدارس نزعاتها وفلسفاتها وأبحاثها وأهدافها المستقبلية المتطورة.

●● عندما كان بيكاسو Picasso يدرس الفن فى برشلونه وهو صبى فى الرابعة عشر من عمره، تفوق على أساتذته فى رسم اللوحات الأكاديمية والانطباعية.. فإذا ما طالعتنا أعماله الحديثة الغارقة فى

الحداثة.. لابد وأن نصدقها وأن نمجدها.. لأن القمة لا ترتكز على فراغ.. بل على بناء متين ذى قواعد راسخة!

وهكذا شهدنا صلاح طاهر.. يذوب فى دراساته الأكاديمية ورسم الأشخاص Portraits لأستاذيه أحمد صبرى ويوسف كامل فى نهجهما التأثيرى.. وكما تمعن بيكاسو فى دراسة تراثه الإسبانى ممثلا فى الفن الأيبيرى، وجدنا صلاح طاهر يهيم فى البحث والتنقيب واستيعاب الفن الفرعونى فى الأقصر وفى كل موقع به آثارنا الخالدة.

●● سئل الفنان الفرنسى العالمى ماتيس Matisse الذى تُطلق عليه صفة «أحسن الملونين»، عن سر تفوقه اللونى فى أسلوبه الذى أطلق عليه هو اسم: «الرؤية المتكاملة»، أجاب:

ما كنت لأصل إلى ما وصلت إليه لولا دراستى المتأنية للفن الإسلامى ومساحاته اللونية المعجزة!

فالفن الإسلامى معين لا ينضب من الإلهامات التشكيلية والإشعاعات الروحية فضلاً عن تجريديته اللامتناهية، ولذلك رأينا فناننا صلاح طاهر يدلى بدلوه فى هذا المعين المهيب.. ويتخذ من روائه دراسة وثقافة صوفية. وإلهاما تراثيا لإبداعاته التشكيلية المتطورة.. وقد اختزن هذه الدراسات العديدة فى عقله ووجدانه.. واستحضره فى أحدث مراحله الفنية التى استولت على إعجابنا جميعا.. عندما شكّل الحروف العربية ولفظ الجلالة والأسماء الحسنى فى صور نورانية تتماوج بين التجريد والتسبيح!

وفى جميع مراحله الفنية المتطورة .. نلمس جليا أحاسيس الفنان وهو يسائل نفسه «ليس المهم أن أعرف «ماذا» .. بل الأهم «كيف ولماذا» ؟

●● أصدقاءنا: إذا أحسنّا الإصغاء لحديث الفن وحكايا الفنان على صفحات هذا الكتاب سنصل فى النهاية إلى نتيجة رائعة: إنها سجل جامع فى محاضرة مبسطة شاملة عن التاريخ والتذوق و«النقد السياقى» «Contextual Criticism»؛ وهذا النوع من النقد هو ثقافة الاستعراض الشمولى لكافة الظروف الاجتماعية والشخصية والمؤثرات التى تشكل المضمون الفنى عند الفنان، وما أحوجنا إلى هذه السلاسة التى استعرض بها فناننا فيضا من الأحداث والمعلومات بعيداً عن التعقيدات المهنية أو الغموض الذى يزداد غموضاً فى زحام التعبيرات المتخصصة والإيماءات المبهمة المتعالية!

إن الفن الرفيع فى بلدنا يحتاج إلى جمهور من المتذوقين لكى لا تكون هناك فجوة أو جفوة بين جهازى الإرسال والاستقبال، سيما وأن الفن بطبيعته الديناميكية لا يعرف الصمت ولا السكون.. ولذلك تتضح أهمية الثقافة الفنية لتهيئة البصائر إلى التذوق والاستيعاب.. وإذا انتشرت هذه المعارف للتعريف بالفن واستجلاء غوامضه، صارت الأعمال الإبداعية بما تحويه من معنى «أمام» المتذوق، وليست «وراءه»! أو بمعنى آخر، يسعى المتذوق بخطى حثيثة إلى اكتشاف أسرار الحداثة وفك رموزها وما تنطوى عليه من مضامين، بدلا من أن يكتفى بالموروثات التقليدية «كأشياء» امتلكها سابقة التجهيز.. ذلك لأن الفن الحديث لم يعد مجرد بصريات جميلة أو منظورات تطابق الواقع فيما

يعرف بنظرية «المحاكاة»، ولكنه ـ فى نزعاته المعاصرة ـ قد تطور واتسعت دائرة اهتماماته لتشمل الروح والذات والتصوف والطبيعة وما وراء الطبيعة والرمز والحلم واللامعقول وما هو كائن وما يجب أن يكون..

وتلك هى خطورة التحول من نظام معرفى تقليدى التصق ـ أيدلوچيا ـ بالتقاليد والموروثات والتبعية الثقافية أو السياسية، إلى نظام آخر يواكب «الحداثة» وما «بعد الحداثة» يساعد على انطلاقة الإبداع وحيويته الخلاقة من عالم الفنان الداخلى الذى هو مركز الفكر الحقيقى، وهنا تبرز أهمية الفنان الحقيقية فى مجتمعه بقدر تمرده على ما هو سائد كصور من صور الاستسلام الجماعى، وتحرره من التبعية النمطية وألا يخضع لأى «سلطة» ملزمه! ولا ألقى العبء كله على المجتمع وجمهور المتذوقين، ولكن دور الناقد الواعى هو الدور الرائد فى قضية التذوق المعاصرة..

وللحق والتاريخ أقول: ان فناننا صلاح طاهر قد قام ـ بدأب وإيمان ـ بمهمة مزدوجة: يبدع إبداعه المتطور الباحث فى آفاق الحداثة، وفى الوقت ذاته ينشر المعارف والثقافة الفنية بين جمهوره حيثما استطاع إلى ذلك سبيلا، ليدرب حواسهم على تقبل الفن الحديث.

●● وإذا تفاوتت أحكام الناس على الأعمال الفنية المتطورة فى عالم اليوم، فإن هذا الاختلاف يعتبر عنصرا إيجابيا للفن، فهو يزيد من رحابة القيم الإبداعية، كما أنه إثراء ثقافى فى علوم النقد الفنى وفلسفة الفن وعلم الجمال Aesthetics، وكلها علوم تدعم الفن وتعمق من

مفاهيمه الوجدانية فى نفوس المتذوقين. وعلى أيه حال فالقاعدة النقدية تقول:

«من المستحيل أن تصدر حكما واحداً قاطعاً على أى عمل فنى، ويكون ملزما للآخرين»!

وبهذه النتيجة نرى أن عملية التذوق ذاتها - كالنقد - تحكمها النسبية Relativism .. وتحتاج منا ـ نحن العاملين فى الحقل الفنى ـ دائما إلى المزيد والمزيد من الشرح والتحليل ونشر الثقافة الفنية بجانب الإبداع الباحث المتطور المواكب للتحويلات المعاصرة.

●●●● وبعد هذه التقدمة الموجزة عن مضمون الكتاب وعالم فناننا صلاح طاهر ومفهوم الحداثة المعاصرة، وقضية التذوق الفنى، أرجو أن يحظى القارىء بجولة ممتعة فى دروب الحديث والذكريات.. وإذا كان فناننا اليوم يجنى ثمار مشواره الطويل، ويتسامى بين مكانه ومكانته فى وطنه وفى قلوب الفنانين والمتذوقين على مستوى عالمنا العربى الكبير، فإنه مازال حتى اليوم يستعذب القلق والصراع الفكرى ومساءلة النفس عما هو كائن وما يجب أن يكون... إنه كالكواكب السيارة التى لاتكف عن دورانها.. ولكن حسبها أنها تدور فى أفلاكها العلوية!

-١-

من العسير أن يتذكر الإنسان طفولته فى مطلعها، ولكنى بقدر إمكانى سأحاول تذكر المرحلة التى بدأت أعى فيها بعض الشئ، أعتقد أنه كان لى من العمر سبع سنوات تقريبا. قبل هذا كانت فكرتى عن طفولتى عائمة.. غير واضحة ولكن هناك حادثة واحدة أذكرها بشكل مؤلم ومحزن، ولا أنساها أبداً.. وهى أنى سقطت من الدور الثالث على الأرض.. كان لى أخ يكبرنى بعشرين سنة، وكان بمثابة الأب لى تقريباً كان مستنيراً يشجعنى على الاثنين «الفن واللعب» وفى أحد الأيام كان يلعب معى فقفزت على بسطة الشباك واستندت خلف الضلفة الخشبية حتى أختبئ منه.. كنا نقطن فى الدور الثالث فى بيت القاضى وراء مسجد سيدنا الحسين مباشرة وأنا ألعب وأحاول أن أخيفه من وقفتى إذ سقطت من هذا الارتفاع، ويشاء القدر أنه كانت هناك حديقة حول البيت، وكل ارتفاع البيت خمس أدوار، وفى سقطتى اشتبكت ملابسى فى فرع شجرة ثم سقطت على الأرض بعد ذلك فكانت الوقعة محتملة. بالمناسبة فى مقابل هذا الحادث حدثت لى حادثة مماثلة فى

الكبر وهى أنى سقطت من الدور السابع بالمصعد «الأسانسير» ... المهم بالنسبة لما حدث فى طفولتى أذكر أننى قضيت شهراً غير قادر على الحركة بتاتا. هذه أول حادثة أتذكرها وأقدم حادثة، لا أتذكر قبل هذا السن شيئا.. أخى رحمه الله كان بمثابة الأب لى وكان يملأ جزءا كبيراً من حياتى ويعوضنى عن الوالد المشغول وخاصة فى مسألة «اللعب والفن» هو كان مهندساً وبالطبع يقدر معنى الفن. كان والدى مقدراً هو الآخر ولكنه كان أكثر اهتماما بالشعر العربى والتراث الأدبى العظيم، وكان أيضا يهتم بالبحوث الدينية، الكتب الدينية، ولا أذكر أننى رأيته يوماً دون كتاب فى يده مثل كتاب «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالى ... المدهش أن عندى الآن أربعة أجزاء ورثتهم عنه فى مكتبتى هذه. وكان يحرص على أن يحفظنى قصائد فى ذلك الوقت من الشعر العربى العظيم من أشهر القصائد وكان يعطينى «قرش تعريفه» على كل قصيدة، وكان هذا مبلغاً كبيراً فى ذاك الوقت يعادل أكثر من جنيه الآن، فكانت النتيجة أننى حفظت كثيراً من الشعر العربى القديم وأفادنى فائدة كبيرة هذا الحفظ لأنه رسخ فى العقل الباطن، ومن السهل أن أتذكره فى أى وقت بمجرد أن يستثيرنى أحد.. أما عن عادة القراءة فقد تمكنت منى فى عمر احدى عشر عاماً وكان اقتناء الكتب لايكلف كثيراً آنذاك فاتسعت دائرة القراءة عندى وأصبحت عادة إلى أن التقيت بالأستاذ «عباس العقاد» فى مطلع شبابى.. كان لى من العمر تسعة عشر عاماً تقريباً وهذا اللقاء أحيا داخلى حب القراءة لدرجة مذهلة حتى وصل بى الأمر أننى كنت أقرأ حوالى ست ساعات فى اليوم وأغرب مافى الأمر أن يكون عندى امتحان فى المدرسة وأجد نفسى

أقرأ فى موضوع آخر يستهوينى بعيداً عن المنهج الذى سأمتحن فيه، ولذلك لم أكن تلميذا موفقا بمعنى أننى رسبت فى السنة الثانية الابتدائية، وربما تكرر هذا بعد ذلك.. فى الحقيقة لم أكن أرتاح للمذاكرة إطلاقاً ، وهذه كانت حقيقة مؤلمة لا أحب أن أقولها للصغار أو الشباب الآن.. إلا أن تفكيرى فى ذلك الوقت كان مختلفاً وكنت أفكر فى أشياء غير التى يلقنوننى إياها فى المدرسة!

وإذا تذكرت بداية حبى للفن والرسم، فكان أخى رحمه الله يشجعنى جداً ويشترى لى الألوان والكراسات، ويكون سعيداً حين أرسم. يشجعنى دائما ويضحك فى وجهى دائما كل هذه أشياء مهمة جداً خلقت لى مناخاً جيدا.. كما أنه كان لى أخوات يكبرننى أيضاً بكثير جداً، توفين إلى رحمة الله جميعاً. كن جميعاً وأخى معهم يهتمون بى ويد للوننى وهذه طبيعة الطفولة ومانتطلبه. فكانت طفولتى والحمد لله موفقة إلى أكبر مايمكن من التصور وبداية أنعم الله تعالى علىّ بوالدة ليس لها نظير فى تصورى. أم تحمل فى حناياها العطف الموجود فى كل الأمهات وبالذات بشكل مذهل بالنسبة لى أنا.. عطف ليس ككل العطف الموجود عند النساء كلها.. بل عطف مذهل، مذهل لأنه ليس له نظير.. أذكر فى أخريات حياتها أنها أصيبت بالشلل وكانت تمشى بعصى ويد من يديها لاتعمل.. فى ذاك الوقت كنت بطل مصر فى الملاكمة مع التواضع الشديد رغم أنى لا أحب أن أتذكر أو أذكر مسألة الملاكمة ولكنها أتت بمناسبتها.. فى ذلك الوقت، كنت مغرما «بالمساج Massage» أو التدليك وكنت متعباً فى يوم من الأيام ووجدتنى أمى فجاءت إلى سريرى بصعوبة وقعدت تدلكنى وهى مشلولة بيد واحدة!

هذه الحكاية لايمكن أن أنساها فى حياتى... وظلت رعايتها لى رعاية غير رخيصة أو مبالغا فيها إلى درجة الهيافة لا.. لا.. أمى كانت واضعة فى حسابها أننى صاحب ملكات... وفوق هذا دائما أبى يؤكد لها «صلاح عنده ملكات هتبان بعد كده، الولد صحيح مش نافع فى المدرسة لكن سينفع فى حاجات أهم من المدرسة»... إلخ ومع ذلك سارت الأمور، إلى أن التحقت بالفنون الجميلة.. أحب أن أضيف شيئا هاما عن مرحلة الطفولة. لأن طفولتى كانت تمتاز بشئ كبير جداً فى نظرى أنا.. وهو أن والدى كان بالفطرة يتعامل معى حسب قوانين سيكلوجية التربية الصحية The Psychology Of Bringing Up والسنين المحددة!! هو لم يقرأها لكن فطرته السليمة قادته إليها. هى أن الطفل فى السبع سنوات الأولى لابد أن يربى عن طريق الخيال وليس عن طريق الواقع إطلاقاً لأن خيال الطفل فى هذه السن يكون مذهلاً ورائعا جداً يحوى تراث البشرية كلها. ملايين السنين من البشرية داخله فكان يحكى لى حكايات كلها خيالية ويحببها لى من كتب الأدب القديم العربى ويحكى لى مثلا حكاية الفتى إللى طار وطلع له جناحات أكبر وهو يرتفع.. ولما لمس النجوم واستراح على القمر... إلخ.

من جهة أخرى أننى لو أخطأت أى خطأ لايهيننى على الإطلاق إنما يأتى فى موعد الحواديت وأجده يقول لى:

«تعرف ياصلاح كان فيه ولد أدك بالظبط وعمل العملة الفلانية.. مكنش كويس فحصل له كذا وكذا وكذا» لايمكن أن يهيننى مباشرة وهذا هو الأسلوب السوى بالنسبة للتربية عن طريق الخيال. يعنى نستطيع أن

نشحن ونثير خيال الطفل بكل المعانى السامية، وعندما يتيقظ ويدرك تماما فى سن الواحد والعشرين سيستيقظ أيضا الخيال داخله الذى حصل عليه فى السبع سنوات الأولى/وفى السبع سنوات التالية من عمر الإنسان يتكون المنطق العقلى والعمليات الحسابية والملاحظات، فكان والدى يأخذنى إلى القناطر الخيرية ويلفت نظرى إلى أشياء «شوف الفرق بين الشجرة دى والشجرة اللى بجانبها» بعد أن كان يعلمنى الخيال ويحكى لى حواديت بدأ يأخذنى إلى مجال ثقافى علمى آخر، هو لم يكن يقصده تماماً إنما فطرته السليمة هى التى قادته إلى هذا... وعلى ماأذكر ابتداء من سن ثمان سنوات وكل يوم «أحد» يأخذنى إلى القناطر الخيرية وكما قلت لك أنا أصغر إخوتى بفارق لايستهان به، وطوال ماكنت مع أبى هناك إما أن يحكى لى حكايات واقعية فعلاً من الحياة أو يلفت نظرى إلى ملاحظات وفروق بين الطبيعة وبعضها. باختصار أريد أن أقول إن هذه المرحلة كانت موفقة جداً فى حياتى بوجود هذا الأب وذاك الأخ وتلك الأخوات العظيمات، لقد صنعوا من حولى مناخا مناسباً.. وهذا لايعنى أننى لم أعاصر أزمات صعبة، لأن هذه كانت طبيعة التجارة التى كان والدى يعمل بها، هو كان تاجر جملة وله مكتب فى حىّ الموسكى وله مخازن للتجارة التى كان يستوردها من الخارج.. لم يكن يشعرنى بتلك الأزمات ولكنى كنت أحس بها.. أحس أن المناخ قاتم قليلا.. هناك نقطة صغيرة أحب أن أشير إليها بالنسبة للموسيقى. كان عند والدتى يوم للمقابلة على عادة سيدات هذا الزمان أذكر أن يوم المقابلة هذا كان مساء الاثنين من كل أسبوع تأتى فيه السيدات وكان هناك سيدة تركية تجيد العزف على

«العود» وكذلك تجيد الغناء تماما وكان عمرى فى ذلك الوقت حوالى خمس سنوات ماأن تصل السيدات إلا ويسألن: «فين صلاح.. فين الولد صلاح» فأجلس بينهن وأسمع الغناء من صاحبات المواهب... أخى نفسه كان صوته جميلا ويحب الموسيقى وكان يغنى لنفسه كثيراً.. يعنى أريد أن أقول إن المناخ العام كان يسمح بالثقافة والفن بل بكل أنواع الفنون.. كل هذا رتبه القدر حتى نجنى ثماره فيما بعد وأنا أدخل بخطى سريعة إلى مرحلة البلوغ وجدت أخى الكبير يشجعنى تشجيعاً غريبا على الرياضة البدنية حتى أفرغ الطاقة فيها ولكن مع الأسف اخترت بنفسى رياضة لا أحبها، ولذلك لم تعمر معى طويلا وهى الملاكمة ابتدأتها من سن الثالثة عشر واشترى لى أخى الجلافس Gloves أو القفازات المعروفة ثم أصبحت عضوا فى النادى «الأهلى» مع «سيد نصير» رغم الفارق فى العمر بينى وبينه وتعرفت بشخصيات أخرى كثيرة وحصلت أكثر من مرة على بطولات القطر.. استمرت معى هذه الرياضة حتى سن العشرين ثم هجرت الملاكمة إلى الأبد.. بعد أن كبرت بسنوات بعد هذه المرحلة اعتنقت رياضة اليوجا Yoga وسأتكلم عنها فى موضعها ولكن بين تركى للملاكمة والرياضة العنيفة وبين اعتناقى اليوجا كان هناك عدة سنوات قضيتها فى حالة صحية ونفسية سيئة جداً، سأتكلم عن هذه الفترة فيما بعد.. وعلى فكرة لقد كنت أعزف كمنجة كويس جداً. أخى الكبير هو الذى أهدانى آلة الكمنجة وأنا محتفظ بها إلى الآن ها.. ها حاجة خيالية جداً أعزف كمنجة بدرجة عالية وفى نفس الوقت ألعب ملاكمة وأحصل على بطولات وأيضا أرسم لوحاتى ثم هناك عادة القراءة... وفى يوم طلب

منى صديق لى فى المدرسة أن أحيى له عيد ميلاده قال لى: «هات كمنجتك وتعالى عندى» كان سنى تسعة عشر عاما تماما.. ذهبت إليه ووجدت عندهم الأستاذ «عباس العقاد» صديق والده جلس معنا ثم نظر إلى وقال: «أنت صلاح طاهر هتعزف كمنجة.. ورينى إيدك إللى هتعزف بها وبتلاكم بها إزاى؟» أذكر فى ذلك الوقت أننى كنت أقرأ كتابا لشبنهاور Artur Schopenhauer اسمه Celections عبارة عن مقالات له. هذا الفيلسوف الألمانى العظيم من أكبر فلاسفة ألمانيا وفلسفته قائمة على التشاؤم وجلسنا نتكلم عن الفن وعلاقته بالحياة، وأذكر أننى قلت له بأننى قرأت كتاب مقالات لشوبنهاور Artur Se-hopenhouer ولم أكن قد قرأت فلسفته كلها بعد.. بالطبع بعد ذلك قرأته كله وأحضرت أهم كتبه وهى العالم كإرادة وفكرة The World as Will and idea-Two Volumas وفيه فلسفته كلها وقلت له: إن شوبنهاور Se-hopenhouer فى مقدمة كتابه يقول للقارئ: إن الحياة كلها كآبة وشر ولكن الشئ الوحيد الذى يجعل الحياة تستحق أن تعاش هو الفن. «العقاد» انبسط جداً وليلتها لم أعزف الكمنجة لأن الوقت ضاع فى الكلام مع العقاد وقال لى: «أنا عندى الصالون بتاعى كل يوم جمعة.. يهمنا أن تكون موجوداً» ومن يومها أصبحت تلميذ «العقاد» وإبنه الروحى مدى الحياة. وأنا الوحيد الذى كان يسمح لى بأن أستعير أى كتاب من مكتبته لايستطيع أحد أن يجرؤ ويمسك كتابا إلا أنا! وهذا المعنى مكتوب فى كتاب «أنيس منصور» الذى بعنوان «حياتى مع العقاد» طبعًا علاقتى بالعقاد فتحت آفاقى الثقافية ووسعت مداركى وأيضًا وسعت دائرة علاقاتى نفسها أذكر كان لى أستاذ فى الفنون فرنسى إسمه Preval

وآخر إنجليزى مستشرق اسمه حمزه كار Hamzacar كان يدرس لى «مناظر» لأن المصريين لم يأتوا بعد من البعثة من أمثال «أحمد صبرى»، «ويوسف كامل» اللذين وصلا بعد ذلك، وحلا محل الأجانب أنا أجل الأساتذة وأحترمهم ونفذت التعليمات والدراسة التى طالبونى بها وأتقنت اتقانا كبيرا الصنعة Technic أو التكنيك لكن العملية الخلاقة للفن شيئ آخر إنها من عطاء وابتكار الفنان نفسه إنها الإضافة التى يخلقها خلقًا مثلا فى كلية الآداب يدرسون للذين عندهم ملكات الشعر القوافى والعروض والبيان كل هذه وسائل لابد أن تدرس ولكن ليس هذا هو الشعر!

وفى نفس الوقت بدون هذه الوسائل لا يكون هناك شعر. الصنعة مهمة جداً فى الفن ولكن الصنعة وحدها لا تعطى فناً إطلاقًا.. إطلاقًا ... إطلاقاً.

الشائع فى معظم أنحاء العالم أن يقال فلان يرسم «كويس جداً» يعنى حافظ«نحو» الصنعة صنعة الفن ولكن أين الفن؟ الفن هو إبداع وابتكار بمعنى شئ لم يسبق إليه. بمعنى الأسلوب Style فإذا لم يكن هذا موجودا فلا يوجد فن.

الفنان العالمى بيكاسو Picasso غير شكل الكرة الأرضية التى نعيش عليها وليس فقط الفن التشكيلى Figurism غير شكل الأثاث والعمارة والمنازل والأزياء حين ابتكر الفن التكعيبىCubism الفن التعبيرى Ex-pressionism ثم سارت المسائل وتفجرت عن الفن التجريدى Abstract art فالإبداع والابتكار شئ مختلف عن الصنعة ولكن أيضًا لا يمكن أن

يبعد عن الصنعة. الصنعة لها أهمية كبيرة .. وكذلك شاعرية أو موسيقية العمل الفنى لابد أن تبقى مع الصنعة. باستمرار أذكر أننى كنت تلميذا جيدا فى الفنون الجميلة وكانت تسمى الفنون الجميلة العليا، كان عددنا لا يزيد عن اثنى عشر طالبا فى العام كله بعد أن أنهيت هذه الدراسة اشتغلت مدرسًا فى مدرسة المنيا الابتدائية لمدة سنتين ثم عملت مدرسًا فى مدرسة العباسية الثانوية فى الإسكندرية لمدة أربع سنوات، وأخيرًا عملت فى مدرسة فؤاد الأول الثانوية فى القاهرة لمدة سنة واحدة، بعدها قمت بالتدريس فى مدرسة الفنون الجميلة نفسها.. وقابلت الزملاء القدامى والأساتذة الكبار وأنا مع التواضع الشديد قارئ جيد وفى الفن اتسعت آفاقى.. وأنا أتقن رسم الشخوص أو البورتريه Portrait وكل إنسان يستطيع أن يتقنه ولكن ليس هذا هو الفن!! ولا طبيعته! الفن هو إبداع قبل كل شئ، وتناول جديد للحياة والطبيعة يختلف عن الأصل الموجود فعلاً! تناول بأسلوب جديد بمعنى أنه لابد أن يكون لكل فنان أسلوب Style جديد وأن لا يقلد غيره. هذا الكلام قلته فى محاضرة وبعد أن انتهيت منها جاءنى «جمال السجينى» رحمه الله وقال لى: «إن المحاضرة جيدة جداً ولكنك أنت ليس لك أسلوب أو مدرسة» وقد كان هذا صحيحاً لأنى كنت مازلت فى مطلع حياتى.. الحق أننى قدرت منه هذه الملاحظة جداً والأكثر أنها «عششت» فى عقلى وعملت محاولات كثيرة حتى أبتكر أسلوبًا خاصاً بى طبعًا تعبت كثيراً جداً حتى أجد نفسى وأكتشف أسلوبى لقد أخذت المسألة منى جهداً ضخمًا جداً ومحاولات كثيرة بعضها أصيب بالفشل وبعضها نجح جزئيا.

أرجع يا سيدتى لطفولتى وأذكر الأستاذ «محب الدين الخطيب» صاحب المكتبة «السلفية» فى شارع عبدالعزيز هذه المكتبة لا أنساها أبداً كانت ملحقاً بها صالون يجتمع فيه شيخ الأزهر ومعه شخصيات أخرى كبيرة فى الدين وغير الدين من أدب وشعر وفن وكان عمرى فى ذلك الوقت ثمانى سنوات وكان والدى رحمه الله يأخذنى لأجلس معه فى هذا الجو الذى جعل عقلى يشتعل من كثرة المناقشات الدينية والأدبية والفكرية والسياسية.. وفى يوم وأنا فى هذه السن دخل علينا شاب آت من جامعة أكسفورد Oxford university فى انجلترا واسمه «صلاح الدين العظم» من عائلة العظم الشهيرة فى بلاد الشام وتكلم معى كما يتكلم أى إنسان مع طفل وسألنى: «أنت عاوز تطلع إيه يا شاطر» فقلت له: «أنا عايز أطلع رسام كبير زى رفاييل Rophaïl» فضحك كثيراً وسألنى من الذى قال لك عن رفاييل فقلت له: «أخويا حكالى عنه» ومرت هذه الحكاية ويشاء القدر بعد حوالى خمسة عشر عاما من هذا الحديث أن ألتقى بهذا الشخص أيام عملى فى العباسية الثانوية بالإسكندرية كان قد كبر، وأصبحت له مكانة كبيرة وكان لى معرض فى الإسكندرية وكان المعرض الثانى فى حياتى فدخل وذكرنى بالحديث الذى دار بيننا وعمرى آنذاك ثمانى سنوات وقال لى بأننى تنبأت لنفسى بأن أصبح رساما فلما سمع عن المعرض جاء بنفسه ليرى النتيجة.. وظلت العلاقة بيننا ودية إلى أن توفى..

أردت أن أقول إن طفولتى لم تكن سيئة وكذلك مطلع شبابى.. أنا طبعا لا أقول إنها كانت مثالية لأنه ليس هناك شئ مثالى أبداً لكن الله بعث لى بأناس من شأنهم أن حركوا الجوانب التى بداخلى إلى آفاق أعلى ثم أعلى فى كل سن وفى كل مرحلة.

٢

على المرء منا أن يغمر حضن نفسه بالجمال الذى حوله لأنه الشلاَّل الذى ينهل منه وهو يصنع الفن أى يصنع الحياة

ج ح

-٢-

رغم الخلفية الواعية عندى بالفن والمدارس المختلفة إلا أننى لم أر أسلوباً جديداً مبتكراً فى التجريد مثل الأسلوب الذى كان للصورة التى أخذت الجائزة الأولى فى أمريكا فى ولاية بوسطن Boston فى ذلك الوقت على ما أذكر عام ١٨٥٧م. هذه الصورة أثرت فىّ تأثيراً كبيرا جداً لأنها كان بها كل القيم التشكيلية التى درستها فى الفنون الجميلة، ومعاهد النقد الفنى ومنها معهد السينما، وكلية الآداب بجامعة القاهرة، وبقسم الآثار أيضاً. لقد درست كثيراً حتى يمكننى بعد التأمل لأى عمل فنى أن أعرف كيف أقيمه. وكيف يعرف الإنسان التقييم. وما هى الموازين التى يحكم بها؟ طبعا لا يكتفى هنا أن يقال مثلا: هذه لوحة جميلة «عجبانى» هذا كلام ناقص أو فارغ من مضمونه أو غير علمى لأنه لابد أن يقال التفسير والتبرير. لماذا هذه جميلة ولماذا تلك أقل. لابد أن يشرح الناقد ويكون لديه وعى بالمسائل والقيم والمقاييس الفنية. هذه هى أسلحة الناقد وأنا شخصياً تقديرى للفنون الكلاسيكية والفنون القديمة التاريخية تقدير كبير جداً ابتداءً من عصر الفراعنة، بل ابتداء

من العصر الحجرى القديم من أربعين ألف سنة المهم أنا لا أريد أن أسترسل ولكن ما يهمنى أن أقوله هو أننى وجدت القيم التى أتكلم عنها ليل نهار فى التدريس موجودة فى هذه اللوحة التجريدية التى رأيتها فى بوسطن Boston بالولايات المتحدة ولكنى للأسف لا أذكر، اسم الفنان صاحبها، وكان علىّ أن أسافر فى اليوم التالى ولكنى أجلت سفرى أسبوعاً حتى أستمتع بتلك اللوحة لمدة أطول وحتى أشاهد أكثر وأكثر من المعارض والقطع الفنية والمقتنيات. ما وجدته فى تلك اللوحة هو أن القيم الفنية محققة تماما. الخطوط الرائعة الرصينة التى للفن الفرعونى.

الخطوط الراسخة المليئة ثقة، وكذلك وجدت الخطوط الرقيقة التى للفن الصينى واليابانى موجودة أيضاً. ووجدت نسيج الملمس Texture ملمس السطح. اللمسة الأولى فى الألوان التى تعجب بها عند الفنان رامبرنت Remberandt الظل والنور موجود فيها الذبذبات Vibra-tions-« الذبابات اللونية فى التأثيرية Impressive Vibrations التى للفنان سيزان Paul cezanne موجودة كذلك. ياالله إن كل القيم الفنية التى أدرسها موجودة. كيف هذا!! هذا ما شغلنى واستحوذ علىّ تماما. ورجعت إلى مصر وفى قرارة نفسى أن أعتنق الاتجاه التجريدى. ومرة واحدة وبلا تدرج من الواقعية إلى التجريد.. وبقيت عاماً ونصف عام كنت وقتها مديراً للمتحف الحديث. أقضى نهارى هناك وفى مخزن المتحف جهزت لنفسى حجرة صغيرة لأعمل داخلها والمتحف نفسه يديره نائبى وهو الأخ والأستاذ «يحيى أبو حمده» الذى هو الآن أمين عام «جمعية محبى الفنون الجميلة»، ولكن بعد سنة ونصف من اعتناقى

التجريد وجدت بعد فحص الموضوعات بنفسى أنه ليس أنا.. ليس أنا بعد إنما كان مجرد تأثير وتأثر بالفن التجريدى فى العالم إنما «صلاح طاهر لسه غير موجود» يعنى ببساطة يستطيع أى ناقد أن يقول عنى أننى أقلد فلانا أو متأثر بفلان.. كدت أصاب بالجنون من هذه المواجهة لنفسى وبنفسى ورجعت أدراجى للواقعية لكن بطريقة تعبيرية أساسها الخطوط وشىء بسيط من التكعيبية Cubism وعملت لوحات مشهورة إحداها فى مطار القاهرة فى استراحة كبار الزوار هى لوحة من المرحلة التعبيرية Expressionism وبقيت سنة ونصف أخرى أشتغل بهذه الخطوط، ولم أكن مقتنعاً تماما بما أفعل ولو أنها كانت تعتبر نقلة خاصة بى بمعنى بدء ظهور كيانى وشخصيتى وأسلوبى، إلا أن هذا لم يرضنى، لأنى أريد التجريد «أنا عايز تجريد» وبعد سنة ونصف ثالثة نقلت إلى التجريد Abstract وبقيت أعمل فيه بعمق وحسب الخبرات والتجارب التى طحنتنى فى عملية التكنيك، وغيرها إلى أن ابتكرت أسلوبى الذى عرفت به الآن. وهو أسلوب لا يستطيع أحد أن يقول عنه إننى أقلد فلاناً أو علاناً أبداً أبداً. أبداً وكان هذا نتاج خبراتى ودراساتى التى ليست لها حصر عن فنانين حول الكرة الأرضية كلها سواء عن طريق الزيارات، أو عن طريق الكتب إلى أن وجدت نفسى نهاية المطاف. ولكن كونى وجدت نفسى فليس هذا كافياً!! أريد للأسلوب أن يتبلور ويرسخ فى كيانى ويُكَوِّن جزءاً من العقل الباطن ليخرج عند اللزوم.. هذا أخذ وقتاً منى يا سيدتى ولكن بالممارسة الجادة أمكن لى أن أصل إلى الأسلوب الذى نراه اليوم جميعاً، وطبعا مع الخبرة المستمرة الأسلوب، بتغير قليلاً أقصد يتنقى ويتبلور لأن الفنان لا يمكن أن يعيش فى عمليات الفن

وكـأنه «يمضغ لبـانه» لا.. لا.. لا.. لابد أن يكون هناك مـذاق فنى مختلف فى الأعمال الفنية مع وجود مسألة الأسلوب style التى تكلمت عنها. هذه مسألة بالغة الأهمية فى نظرى وفى نظر كل من يكتب عن الفن ولكن هذا لا يمنع من أننى أعـمل البـرتريهـات portrits أى رسم الشخصيات تركيزا على الوجوه أنا مضطر أن أعمل لأنها مسألة «أكل عيش»، وهذه مسألة لها اعتبار رئيسى، لأنه ليس لدينا - مع الأسف - فى بلادنا الفنان الذى يستطيع أن يعيش من فنه. بمعنى أن كل الفنانين يعملوا فى وظائف!!! أنا مثلا اشتغلت فى التدريس سنوات طويلة وفى الفنون الجميلة سنوات وفى مـهن أخرى كـثيرة جداً سنوات، وسنوات ولكن واحدا مثل الفنان بيكاسو Picasso لا يمكن أن يشتغل فى مـهن مثل «حالاتنا» يعنى لو قالوا لبيكاسو تعالى نشغلك وزير تبقى مصيبة، ها.. ها.. ها لأن فى تصـورى أن الفن رسـالة. هذه الكلمـة أعـيـدها مرتين وثلاث مرات حين يحيا ويعيش الإنسان فى بيئة تقدر هذا الكلام هنا فقط يعيش الفنان من فنه مثل ما هو حادث فى أوربا وأمريكا وبلاد كثيرة جداً. فنانون لا يعيشون إلا من فنهم. الفنان هناك لديه إستوديو بمعنى أتيليه أو مكان خاص يعمل فيه والجاليريهات Galleries بمعنى أماكن خاصة تبيع الفن وتسوقه - تقبل عليه، وتتعاقد معه، وتشترى لوحاته، ولكن هذا لا يحدث عندنا!! ربما لأن عمر الفن التشكيلى فى بلادنا منذ عـام ١٩٠٨م فقط بمعنى أنه حديث من أيام مدرسة الفنون الجميلة التى أسسها الأمير «يوسف كمال» على ما أظن ثم أخذتها وزارة المعارف بعد ذلك بعشرين سنة ابتداءً من عام ١٩٢٨م، وأصبح اسمها «مدرسة الفنون الجميلة العليا»، وهذا يوضح لنا أن العين عندنا لم تصقل

ولم تتثقف بحيث أنها تستطيع أن تحكم على العمل الفنى كما يجب. بمعنى أنهم يمكنهم أن يحكموا على الموسيقى لأنها قديمة وتسمع منذ أول البشرية. يمكن أن يحكموا على الشعر ويقيموه لأنه قديم أيضاً، وطبعا لابد لمن يحكم أن يوضح السبب. لابد أن يقول لماذا. سواء كان العمل سيمفونية أو قصيدة أو كتاب أو مبنى معمارى. لكن مجرد كلام التمجيد لا يساوى شيئاً أو العكس أيضاً لا يساوى شيئاً لابد أن يؤكد رأيه أو ما أقوله بمناسبة الفن التجريدى Abstract Art والحكم عليه. أنا كان عندى كتاب قيم بحوالى مائة جنيه مصرى أو يزيد. كتاب ضخم جداً عن الفن التجريدى فى الكرة الأرضية كلها. والكتاب يحوى أربعمائة لوحة بالألوان. وحجم اللوحات كبير بل ضخم، والألوان متقنة جداً فيه أشهر الفنانين التجريديين على وجه الأرض من أستراليا وأمريكا الشمالية والجنوبية وانجلترا وفرنسا وأسبانيا ويوغوسلافيا.

الكتاب كذلك يتكلم عن كل واحد عنهم وللأسف هذا الكتاب اختفى من مكتبتى ولا أدرى أين ذهب! وأنا عادة لا أعير كتبى، إنما لعلها كانت غلطة منى، ولا بد أننى أعرته لأحدهم ونسيت ذلك على العموم هذه الحادثة جعلتنى أتوقف تماما عن إعطاء أى كتاب على سبيل الاستعارة. هذا الكتاب بالذات كان مقنعًا جداً.. المهم كان فى أصدقاء مثقفين إلى درجة كبيرة جدا. كنا نقعد نفتش فى هذا الكتاب بالأيام ونقلب فيه، والغريب، والمذهل أننا لم نكتشف أكثر من سبع لوحات على الأكثر كان لها امتياز لدرجة الإعجاز، أما الباقى كله فكان عبارة عن لعب عيال.. عبارة عن «شخابيط» وأشياء فارغة... على فكرة يمكن أن يكون هناك «شخابيط» ولكنها إعجاز هناك فنانون كثيرون

«يشخبطوا» لكنهم يخرجوا لنا معجزات ها.. ها.. تصورى من أربعمائة لوحة لم نستطيع أن تخرج أكثر من سبع إلى ثمان لوحات!!!

لهذا أنا دائما ألتمس العذر للناس التى تهاجم التجريد إذ أنهم فعلا لم يجدوا الشيء الذى يهزهم بالمعنى الحقيقى أو الذى يبهرهم أو الذى يجعلهم يتخيلون ويسرحون ويحلمون أى أنهم لم يجدوا أى نوع من المتعة!!!. هذا غير ما يحدث مع الموسيقى الكلاسيك مثلا.. ونحن لسنا خبراء فيها ولكننا نستطيع أن نميز عن طريق الممارسة أى الاستماع المستمر بأن هذه السمفونية عظيمة وتلك أقل.. جاء هذا بالطبع من الخبرة الطويلة ولكن مع الأسف هذه الخبرة فى مجال التشكيل جديدة علينا ومحتاجين إلى صقل أكثر وممارسة أكثر وتدريب للعين أكثر الواقع أن الناس تهاجم التجريد باستمرار وهم معذورون فى ذلك لأن القاعدة المعروفة فى الدنيا كلها أن الناس أعداء ماجهلوا وهذا ما حدث للفنان بيكاسو Picasso الذى ذهب إلى باريس وكان له من العمر تسعة عشر عاما... ترك مدريد بأسبانيا وذلك لأن باريس مجال كبير فى الفن التشكيلى وعندهم اهتمام به وعندهم جاليريهات Galleries كثيرة جداً لعرض وبيع اللوحات وأيضا لديهم نقاد على مستوى فكرى وعلمى.. ذهب بيكاسو، ومعه صديق اسمه براك Brac وهو من الفنانين الكبار وذهبا لزيارة معرض زنجى.. وخرج الاثنان فى غاية التأثير الكبير بما شاهدا.. واخترعا هما الاثنان المذهب التكعيبى Cubism وهذا ليس معناه أنهما نقلا رسم الزنج حرفيًا لا. لا. لا أبداً.. إنهما استلهما فقط الفن الزنجى وأخرجا منه التكعيبة Cubism والتكعيبة موضوع مختلف جداً عن الفن الزنجى. لكن العباقرة دائما ينهجون هذا المنهج

بذاك الشكل بمعنى أن الآخر بمثابة الشرارة الصغيرة التى تجعله يعمل العجب تماما!! وكان بيكاسو فى ذلك الوقت فى العشرين من عمره.. والتكعيبية ياسيدتى هى هندسة الأشكال بمعنى أنه حتى لو رسم السحاب فإنه يرسم بهندسة وليس مجرد سحب عائمه. التكعيبية فيها كل شئ مركز ومتمكن ومبنى بناء الاسمنت المسلح كما نقول هذه هى التكعيبية. وهى أيضا التى حررت بكاسو وكل من عمل بها من القيود والقوانين التى صبت فى أدمغتهم منذ أن كانوا تلاميذ يدرسون.. وكان طبيعيا أن يهاجموا مهاجمة شديدة من النقاد.. وذاق بكاسو Picasso الأمرين، ولكنه لم يتنازل عن تأكيده للتكعيبية بل «استمر واستمر حتى الألم.. حتى الجوع حتى يحقق رسالته»، والفن كما تعلمين رسالة ومسئولية كبيرة جداً... لقد جاع الرجل خمس سنوات لأنه مستمر، ومصمم على التكعيبية ثم بعد ذلك أجبر كل نقاد الكرة الأرضية أن ينحنوا إجلالا للتكعيبية بل أنه غير شكل الكرة الأرضية كلها حين اخترع هذه التكعيبية.. المبانى الحديثة أخذت من بكاسو القالب الجديد للموسيقى الحديثة... حتى السيمفونيات أخذت من تكعيبية بكاسو. الشعر الحديث الذى نسمعه ولا يعجبنا أحياناً لأنه غير مقفى مثلا مأخوذ من نقلة بكاسو الكبيرة المسرح الحديث هو بعينه نقلة بكاسو.... دائما العباقرة يكون لديهم إصرار يؤكد رسالتهم فى الفن لأن الفن ليس مسائل تقليدية الفن إبداع وابتكار وليس نقلا عن الطبيعة، وهذا التعبير يختلف اختلافاً كبيراً جداً من فنان إلى آخر.... إذ يجب على الفنان ألا يكون مثل عدسة الفوتوغرافيا لطبع الأصل وفقط.

هذه حكاية بكاسو مع التكعيبية.. وطبعا أثناء تلك المرحلة كان بكاسو يرسم أيضا بالأسلوب التعبيرى Expressionism style الذى يخرق كل القوانين التى تعلمنا ها فى الدراسة والتى مرضتنى وأتعبتنى سنوات، وسنوات بعد تخرجى لكى أنساها وأجد نفسى أنا.. مرضت عصبيًا أعصابى هلكت رغم أننى كنت رياضيا وصحتى شديدة «زى الحديد» لأنى لم أكن أتحمل البصمات التى لصقها داخلى أساتذتى!! أنا أجلهم احتراماً وأنحنى لهم إجلالا ولكن فى نفس الوقت أريد أن أكون أنا وليس هم. لا أريد أن أكون نسخة مكررة من أساتذتى.. والأساتذة للأسف فى المدارس الفنية لا يعلمون الطالب ما هو الفن «الفن يعنى إيه» إنما يعطوه فقط الصنعة وبذلك يكون الفن مسئولية الفنان نفسه بعد مرحلة النضج التكنيكى الذى هو الصنعة... بعدما يتقن الصنعة يبدأ يبدع. وعملية الإبداع هذه هى الفن ولكن ليس دون الصنعة لأنها ضرورية. الفن دائما شقان صنعة وفن إذا كانت الصنعة هى التى تعمل فقط فإن العمل يكون بارداً «ساقعًا» تكراراً لغيره، ولو كان الفن دون صنعة فيكون مفتتاً غير متماسك. إذن لابد من تلازم الصنعة والإبداع فى كل الفنون وليس فقط الفن التشكيلى. أقول إن بكاسو Picasso كسر كل القوانين مثلا يعمل العين فى الرقبة والذراعين فى البطن ها.. ها.. بعد ذلك أصبحت لوحاته بملايين الدولارات بمعنى أنه بعد ما تضور خمس سنوات فى باريس.. الآن لا يعرف ماذا يفعل فى ثروته لدرجة أنه كل فترة يشترى قصراً فى مكان ما ويملؤه لوحات ثم يذهب إلى بلدة أو قرية أخرى ليفعل نفس الشىء.. وهكذا.. وهكذا ولا يوجد فنان كتبت عنه مطبوعات مثله ولكن نذكر أن بكاسو فى بدء حياته كان

أكاديميا. وبالمناسبة هو لم يكمل تعليمه فى المدارس الفنية بل درس لمدة ستة أشهر فقط ثم بدأ يكمل وحده عن طريق أبيه الذى كان أستاذاً للرسم ويعمل بالتدريس. هذه قصة مهمة بالنسبة للفن والابتكار بعد أن كشف وابتكر بكاسو التكعيبية كان فى أثنائها يشتغل بالأسلوب التعبيرى Expressionism Style وهو ببساطة خروج على القوانين كلها وليس ضروريا أن يكون تكعيبيات ،من التكعيبية فعلا انبثق الفن التجريدى وأصبح سمة العصر كله. الفن التجريدى Abstract Art خرج من التكعيبية Cubism يعنى لولا التكعيبية ما عرفنا التجريد لأن هذه خطوات من حيث التطور Evolution فى غاية الأهمية بمعنى أن كل هذه الاعتبارات لابد أن تكون فى حساباتنا.

أكرر وأقول مرة أخرى: إن التجريد ليس «هزاراً» التجريد لابد أن تتحقق فيه القيم الفنية والتى هى قوانين الخط وقوانين اللون وقوانين الانسجام ونسب المساحات وقوانين تكامل الألوان من هارمونية فى الألوان ومواقع النور والظل ونسبتهما كأنى أمام بناء معمارى مسلح تماما.. كلها قوانين لابد أن تتحقق فى الفن داخل اللوحة التجريدية.. حين يعجب الناس بالفن الفرعونى فإن إعجابهم لا يقتصر فقط على الموضوعات الفنية إنما يعجبون أيضا بالصناعة والتناول والتى منها مثلا رصانه الخطوط.. من هنا لابد لكل عمل فنى جدير بالاعتبار أن تتحقق فيه خصائص العمل الفنى مثال ذلك «الشعر» حين يريد إنسان أن يكون، شاعراً لابد أن يقرأ كثيراً مثل الفنان، لابد أن يرى كثيراً كثيراً. الشاعر يحفظ الأشعار العظيمة ويدرس العروض والبيان والبديع

وفقه اللغة و.. و.. ولكن هل كل إنسان يدرس هذه الأشياء يصبح شاعراً عظيماً؟

كليات الآداب لها مائة عام فى الصعيد والإسكندرية ولابد أنه تخرج منها ما يقرب من مليون دارس للأدب والشعر. ولكن إذا حسبنا عدد الشعراء فى مصر من الصعب أن نستخرج عشرة عباقرة بالمعنى الحقيقى.. هذه مسألة فى غاية الأهمية.. وهناك قصة لأبى تمام الشاعر العربى العظيم حين جاءه شاب وقال له: أريد أن أصبح شاعراً عظيمًا فكان رده: اذهب واحفظ ألفى بيت من الشعر وتعالى إلى مرة أخرى، فغاب الشاب سنتين ثم جاءه وقال له. «لقد حفظت» فرد عليه: «اذهب اذهب وانساهم ثم تعالى إلىّ مرة أخرى».. هذه القصة تبين كثيرا من المعنى فليس الشعر أن تدرس العروض والبيان والبديع وتحفظ. ولكنها وسيلة من الوسائل التى تسأل نفسك بعدها كيف سأستخدم هذه القوافى بعد هذا؟

وهناك بعض الشعراء أضاعوا شعر القوافى، ولكنهم يعوضونه بمعانى عالية جداً بموسيقية أخرى، وبشكل آخر. هذا يعنى أن المفاهيم تتغير وأن زوايا الفهم تتغير ولكن القيم ثابتة من آلاف السنين هذه نقطة فى غاية الأهمية، وحتى أوضح هذا الكلام - يا سيدتى - أكثر نأخذ قيمة مثل الشجاعة وهى قيمة خلقية.. الشجاعة هى الشجاعة لكن مفهوم الشجاعة يتغير من إنسان إلى آخر فالشجاعة عند الكونوستابل غير مفهوم الشجاعة عند الطبيب غيرها عند التلميذ عن التاجر عن الناضج كل واحد منهم له مفهوم معين عن الشجاعة لكنها هى بذاتها من حيث

أنها قيمة لا تتغير مطلقاً .... مثل الكلام الذى أقوله لك عن الفن له كثير من المفاهيم والتناول ولكن القيم تظل ثابتة.

إننا نستطيع أن نضيف إلى هذا الكلام أهمية تحقيق القيم على مستوى عال... بمعنى أن القيم ممكن أن تتحقق ولكنها ينقصها شيء من حيث مستواها... فالثقافة ثم الممارسة كلاهما يفتح آفاقاً أمام الفنان لا حدود لها. يؤسفني جداً أن أعترف أن هناك ضموراً فنيا في كل الأوساط الفنية، وأنا أقصد الثقافة بمعناها الرفيع وليست الثقافة في عادات الناس. لأن هناك ثقافة للغابة.. الغابة لها ثقافتها المعينة وأنا لا أعنى هذا.. ما أعنيه الثقافة بمعنى الارتفاع بالوعى الحضارى، إلى آفاق عالية جداً جداً والاستمرار فى هذا الارتفاع.هذه الثقافة مصدرها الخبرة والكتب والاطلاع، والنقاش والتجارب التى تفتح آفاقا أمام الفنان. آفاق لا حدود لها. عكس هذا تماما حين يقفل الفنان على نفسه الأبواب بلا خبرة سيكون الفن عنده عبارة عن صنعة فقط وتكرار لهذه الصنعة التى يعرفها لأنه تعلمها والمؤسف أن هناك عددا كبيرا فى مستوى هذا اللون من الفنانين وتعجبه ناحية الصنعة فقط ويقول «دى هتنطق «دى هتتكلم» فى هذه الحالة وكما قلت سابقا الفوتوغرافيا تقدم الأحسن، والأكثر دقة لكن كلما ازداد الوعى والتثقيف عند الفنان كلما كان الإبداع والابتكار هو ما يراه داخليا من أعماق الأعماق. وليس نتاج تكرار - أو طبق الأصل - الفوتوغرافيا أو التصوير. وبعد ذلك تأتى مرحلة العطاء الذى لا حدود له. فالخبرة قد لا تتأتى إلا عن طريق الوعى الثقافى الحضارى ولا تنمو إلا بهذا الأسلوب، ولا ترتفع الثقافة بمفردها لكن لابد أن يكون معها الخبرة والخبرة معناها كبير جداً من

أحد معاينيها مثلا أن أستفيد من الأخطاء أكثر مما أستفيد من المحاسن لأننا جميعا نتعلم من المتناقضات «بضدها تتميز الأشياء» بمعنى أن الفنان يصقل أكثر حين يستطيع أن يدرك الأخطاء ويصوبها أو يبتكر صوابا آخر على مستوى أرفع وأسمى. وهذه طريقة تعلم تختلف عن طريق التعلم بالقراءة.. القراءة خبرة الآخرين حين أقرأ لهم كأننى عشت حياتهم.. حين أقرأ ألف كتاب كأنى عشت ألف سنة، لأن هذه القراءات تنصب داخلى.. وهذا الكلام لا ينطبق على أى كتاب إذ أن من المهم مستوى الكتاب الذى سأقرأه ونتاج انعكاسه على الخبرة إذن والثقافة، والتأمل سلوك ضرورى جداً للمشتغلين بالفن إلى درجة بعيدة لاغنى لهم عنها.. وهناك شئ صغير أحب أن أؤكده وهو الإعلام .. أجهزة الإعلام وظيفتها كبيرة فى خلق المناخ الواعى بالثقافة الرفيعة لو تنبهت هذه الأجهزة كلها وتكاتفت من أجل البناء الحضارى، الثقافى الرفيع.. لو تحقق هذا لن نشكو من شئ بل سنجد أنفسنا فى حالة ممتازة وسامية من نواح كثيرة جداً وذلك لأن القوة الموجودة فى أجهزة الإعلام - قوة إيحائية مؤثرة كما هو معروف - تعمل معنا وتروج وتنشر أفكارنا، لأننا طوال النهار والليل نسمع ونرى مواد مرئية ومسموعة، لو أن هذا المستوى الذى يقوم لنا هو مستوى حضارى رفيع وليس مجرد تسلية رخيصة تافهة.. علما بأننا نريد التسلية ولكن بشرط أن لا تكون تسلية تشدنا إلى أسفل.. إن الحياة الإعلامية ليست إخبارية فقط أنا أريد أن يكون هناك آفاق ثقافية رفيعة جداً.. وأنا أيضا لا أقصدها تتفلسف على الناس.. لا.. لا.. ما أقصده أن نعود الشعب وهو يتلقى الرسالة الإعلامية أن يتعلم منها الكثير. سأضرب لك ياسيدتى

مثلا بسيطا كنت فى عام ١٩٦٥ فى انجلترا فى بنسيون Pention، وأمامى التلفيزيون ومن الآراء المتفق عليها أن أحسن تليفزيون فى العالم يقدم برامج هو التليفزيون الإنجليزى، وما يؤكد أهمية التليفزيون أنه فى ذلك الوقت طبع كتاب هناك وترجم إلى العربية فى وقتها واسمه تقريبا «التليفزيون يمكنه أن يبنى حضارة ويمكنه أن يهدم حضارة» شىء من هذا القبيل على ما أذكر.. المهم. فى ذلك الوقت كان فى عالم الاقتصاد شىء إسمه «التضخم المالى» وأنا شخصيا لا أفهم شيئًا فى المسائل الاقتصادية ولكنى جالس أمام التليفزيون ولابد أن أتابع وأفهم ماأراه.. أذكر أن البرنامج استضاف وزير المالية الموجود فى الحكم، وكذلك وزير المالية الموجود فى حكومة الظل أى فى المعارضة وكان المذيع لا يقل ثقافة اقتصادية عن الوزيرين الاثنين، وظلوا يناقشوا موضوع «التضخم المالى» والمناقشة استغرقت نصف ساعة أو أكثر لا أذكر، فأدركت على الفور أنهم كتليفزيون قد تعمدوا أن ينوروا الشعب الإنجليزى فليس من الخسارة فى شئ أن يعطوا الشعب جرعة من الثقافة الاقتصادية على هذا المستوى أنا لا أقول أن نتفلسف على الشعب لا.. لا فقط نحول الفلسفة إلى «قرص» صغير نذيبه فى فنجان ونسقيه للشعب فنضمن بذلك المشاركة الفعالة الإيجابية لتخطى الصعاب والتقدم المستمر، واللحاق بالعالم بل أن نتقدم العالم كذلك، إن الثقافة ضرورية إلى أقصى حد خاصة مع الفنان الذى هو مبدع ولا يأتيه الإبداع إلا من هذا اللون من الثقافة التى تجعل مشاعره تتدفق أكثر وأكثر. وأن كل ما يقال عن اكتشاف النفس على هذا النحو الذى أشرت له لا يتيح للإنسان مهما وصل أن يقف ويتجمد عنده ويكرر نفسه لا..

لا لابد أن هذا الاكتشاف يتجدد بتناول عناصر جديدة وألوان جديدة ومذاق جديد وكلها بالأسلوب الذى اكتشفه لنفسه، والأسلوب طبعا يتخذ آفاقاً لا نهاية لها من الناحية الإبداعية.. بمعنى أنه حينما اكتشف بكاسو Picasso التكعيبية Cubism أو الاتجاه التعبيرى Expressionism لم يتوقف عند موضوع معين أو اثنين أو عشرة أو مائة بل شكل تشكيلات لا نهاية لها بناء على اتجاهه الجديد الذى قدمه للإنسانية. إن الجماعة يا سيدتى المصابين بالفن يشقون به ويتعبون من أجل عملية الإبداع المستمرة لأنها ليست مسألة صدفة «والسلام» ولو أنها حين تظهر تأخذ الشكل التلقائى ولكنه ليس تلقائيا بالمعنى الذى يتصوره الناس وذلك لأن هذه التلقائية التى ظهرت قد سبقها تمهيد ثقافى فى اللاوعى.. اللاوعى هو دائما الذى يحرك الإنسان ويستثير آفاقه الكبيرة ولكن الذى ينبه العقل الباطن من أجل هذا هو العقل الواعى والعقل الواعى يقوم بمهمته عن طريق الثقافة، وعن طريق الخبرة وعن طريق الممارسة بهم يحصل على إدراك عالٍ جداً ويستطيع أن يملى على العقل الباطن ما يدركه العقل الواعى فيما بعد على شكل تلقائى إنها مثل تلقائية الطفل التى تظهر وكأنها أتت وحدها، والحقيقة أنه سبقها تمهيد جوانى داخل التكوين الإنسانى والبشرى فى العقل الباطن ثم قبل كل شىء يجب أن لا ننسى شيئاً مهماً بالنسبة للعقل الباطن الذى بداخله تراث البشرية كلها تراث ملايين السنين إنه حلقة الاتصال بين المادة والمعنى يعنى بين الروح والمادة. العقل الباطن هو الذى يحقق أشياء كبيرة جداً بعدما يأخذ الذخيرة المادية يحقق الأشياء الروحية ذات الآفاق العالية التى لا حدود لها.

٣

أقول : لكى تعرف نفسك

اعرف أُمَّك

چ ح

- ٣ -

إذا ما تحدثنا عن المرأة فالمسألة طويلة جداً ومتعددة الجوانب كيف يبدأ المرء فى التفكير فى المرأة؟ أول إحساس وفهم فى حياة الإنسان مع المرأة. هى المرأة الأم التى يتفاعل معها. أول ما يعى الحياة يقبل على أمه.. ويحب أمه.. ويحب من يشبه أمه. طبيعته تتشكل منذ طفولته الأولى، فكثير جداً من الناس الذين عرفتهم فى حياتى وقعوا فى الحب.. وتزوجوا زواج حب كبير وحين أرى العروس أجدها تذكرنى بأمه تماما! وحين أواجهه بهذه الحقيقة يعترف بها.. ها.. ها.. إن حب الأنثى يتشكل مبكراً من مرحلة الطفولة والأمومة ثم بعد مرحلة البلوغ يكون الإدراك الجنسى أو حب الأنثى ويأخذ أشكالاً كثيرة جداً.. جداً.. مثلا أنا لا أعتقد أن هناك إنساناً على مستوى ثقافى عالٍ يحب جاهلة هذا نادراً جداً ما يحدث لأسباب حسية... وعادةً مظاهر الأنوثة أو علامات الأنوثة هى التى تحرك مشاعر الرجل.. وكلمة أنوثة أيضا تأخذ أشكالا متباينة عند الناس فهى الرشاقة أحياناً بل النحافة أو هى النقيض الامتلاء الذى يعنى معانى. ولكن عموما هذه مسائل لا يمكن أن يكون

لها قاعدة عامة. إن حكاية انجذاب جنس نحو الجنس الآخر هذه وراءها عمليات كبيرة وتاريخ كبير فى حياة الإنسان ابتداء من الأم كما اتفقنا..بمعنى آخر هل المظهر المادى الذى منه الجسم والوجه والشعر هل هذا يكون كافيا؟بالطبع لا لأن هناك الناحية الروحية أو النفسية والناحية الفكرية أو الإنسانية، وهذا يعنى أن كل هذه الجوانب تحرك نفس الطرف الآخر نحو العاطفة، ونحو الحب ونحو اللقاء فى حياتى أنا – كما تقولين – كيف ارتبطت بزوجتى؟ أخوها كان صديقاً مقرباً لى وكان يعمل مهندساً، ولم أكن قد رأيت شقيقته من قبل أو ربما لمحتها بسرعة... ولما كنت طوال عمرى أعشق الموسيقى الكلاسيك، والموسيقى بشكل عام، وفى إحدى المرات وأنا فى بيت هذا المهندس صديقى سمعت عزف كونشرتو بيانو Concerto Piono لشوبرت Franz schubert وكان العزف مدهشاً جداً فتساءلت: «إيه يا محمد ده مين إللى بيعزف؟».

فقال لى بأنها «عايدة» وسألنى: «تحب ندخل نسمع»، ودخلت وذهلت وجدتها تعزف فأخذت بها... لقد كانت فى الجامعة الأمريكية وآفاقها الثقافية عالية، وكانت تجيد الإنجليزية وقليل من الفرنسية ها.. ها، والظريف أننى خطبتها بعد ذلك بشهرين وأنها من يوم أن تزوجنا لم تعزف البيانو أبداً.. أبداً ولكنها كانت تقرأ كثيراً وتلخص لى بعض الكتب لضيق وقتى رحمها الله كانت شخصية وكانت ذراعى الأيمن وكان أفقها واسعاً فى تعاملها مع مهنتى أيامنا تلك كان هناك موديلات بشرية نؤجرهم من أجل أن نرسمهم رجالا ونساء لإتقان التكنيك TECHNIC فى تلك الأيام أيضا كانت مسألة الموديلات تقريباً فى حالة وداع، لأنه ظهرت اتجاهات جديدة كما نعلم جميعا. على العموم هؤلاء الموديلات كانوا مساكين

تماما ندفع لهم خمسين قرشا، ويقفون كالتماثيل لنرسمهم. ونعود لزوجتى فقد توفاها الله من أكثر من عشر سنوات رحمها الله.

الفن الآن أصبح من خيال الإنسان وليس من موديل أمامه لأن الفن تغير بمعنى أننى حين أرسم صورة تجريدية أو تجريدية تعبيرية لا يمكن أن أحتاج إلى موديل ،وإلا لكانت شيئا مضحكا، المهم ياسيدتى أن مرحلة الموديلات Models قد مررنا بها ورسمت موديلات وبرترهات Portraits بمعنى أننى لو وجدت نموذجا ممتازا من ناحية الجمال أو الفتنة أو الجاذبية وهذا يصادفنى كثيراً جداً، فأقوم برسمها ليس لاقتنائها لنفسى بل تأخذها صاحبتها ويكفينى التدريب...، ثم أنى رسمت فلاحين وعمالا أعدادا كبيرة جداً، ومعظمها بالقلم الفحم، وكنت أذهب إلى الريف وأمكث أسبوعاً أو أكثر لأرسم الطبيعة، والأراضى الزراعية بمعنى أننى اتصلت بالطبيعة عدة سنوات ورسمت حوالى أربعة إلى خمسة آلاف لوحة بالفحم، والألوان الزيتية، والباستيل Pastel وهى الألوان بالطباشير، كل هذه أشياء ضرورية للفنان لأنها خبرة وحصيلة ثقافية يختزنها فى اللاوعى Sub - Conscience وتفيده حين يكبر أو حين يبدأ يبدع له أسلوباً جديداً.. وعلى العموم كل هذه المفاهيم عن الفن تغيرت تماما بمعنى أن هناك بعض الجاليرهات Galleries فى باريس ولندن ودول أخرى لا تقبل أن تعرض أى رسوم طبيعية إنما تعرض فقط اللوحات التجريدية أو التكعيبية أو السرياليةوهى -Sur realisme، وهى المتصلة بالخيال والأحلام وكنوز العقل الباطن بمعنى اللامعقول من ناحية الإدراك ولكنه معقول من ناحية الفن مثل روائع سلفادور دالى Slvador Dali فى السريالية. إنهم لا يعرضون بتاتا

اللوحات التقليدية التى تسمى أكاديمية لأنهم يعتبرونها الآن متخلفه جداً لا تساوى شيئا ولكن إلى يومنا هذا نجد الناس غير قادرين على أن يدركوا هذا الرأى طبعا، إلا أن طبيعة الحياة أو ناموس الحياة أن الوعى وأن الثقافة تتزايد نحو الفن الجيد وأيضا نحو الفن غير الجيد!!! هل تصدق! ومن الضرورى بمكان أن نميز بين العمل العظيم وبين العمل التافه أو الردىء إنها مهمة كبيرة وليست سهلة والمطلوب دائما من النقاد العباقرة الكبار الذين هم حلقة الاتصال بين الفنان والعمل الفنى والجمهور. أتمنى أن يزداد هؤلاء النقاد ويوسعوا دائرة نشاطهم إلى أقصى درجة لأن عليهم مسئولية ضخمة.. ضخمة.

نعود إلى موضوع المرأة مره أخرى وكما تقولين وراء كل عظيم إمرأة.. وأنا أقول إنها أكثر من امرأة واحدة فهى الأم والزوجة والصديقة والحبيبة وقد تكون الأخت إنها ليست قاعدة لأنه قد تكون هناك علاقة مودة بين أنثى وذكر تحرك شخصيته أو نفسيته من الداخل ومثل هذه العلاقات من شأنها أنه حينما تكون نفسية الشخص فى حالة ركود هذه المشاعر بالذات تحرك نفسة، وتزيل ذاك الركود والصدأ، ولا يمكن لأى عبقرى أو أى فنان من الممتازين المنتجين أن يستطيع العيش بمفرده فى عزلة!! لا يمكن هذا إطلاقا الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان اجتماعيا.. الحياة الاجتماعية مهمة جداً ولكن شريطة ألا أضيع عمرى كله داخل هذه الحياة الاجتماعية وفقط دون قراءة مثلا دون استماع إلى روائع الموسيقى.. دون زيارة المعارض.. دون الإحساس بالجمال من المشاهدة والتجوال.. وهذه الكلمة نفسها أن يكون له علاقات مودة وصداقة وتبادل رأى بمعنى أن كلها إنسانيات

أى يفرغ الشخص مابداخله لصديقه ويستطيع هذا الصديق أن يخفف عنه.... هذه مسائل إنسانية كل بنى آدم لابد أن يكون معه الجنس الآخر وانعدام هذا - لا قدر الله - يؤدى إلى أمراض نفسية كبيرة، حينما يكون هناك قصور أو غياب لتلك الحميمية ويمكن أن يصاب إنسان بالشذوذ، لأن الجانب العاطفى الجياش ناقص عنده.. الجانب الذى يحرك مشاعره. هذه الأشياء لها قيمة أكبر مما يقال عنها.، العلاقات والمشاعر الجميلة الطيبة التى بين الأنثى والذكر لا تستطيع أن نُسَبِبْها ببساطة وليست لها قاعدة ما بمعنى أنه يمكن أن تكون هناك امرأة تعتبر ملكة جمال ولا تساوى شيئاً عند أحدهم العاطفة ليست لها مقاييس واحدة تطبق وقد ينتقد الناس أحدهم على علاقة ما. وهذا يرجع إلى أنهم غير مدركين لأنهم بالتالى لا يستطيعون أن ينفذوا داخل عقل هذا الإنسان ويفهمون دوافعه وأسبابه... هذه مسائل طويلة وفى حاجة إلى تحليل نفسى.. إنها قضايا من العسير أن نتكلم عنها فى عبارات قليلة ها.. ها.. ها المهم ياسيدتى أن «العقاد» كتب مقالة من أروع ما يمكن عن فيلسوف ألمانى معاصر فى أول هذا القرن واسمه مكسنور داو Maxinor Dau المقالة عن الأنوثة والرجولة والجاذبية بين اثنين وكذلك عن الحب ومكسنور داو فيلسوف وكل فيلسوف عادة يبدأ فى تقديم فلسفته بأسطورة خرافية ثم يدخل إلى الواقع كمرحلة ثانية، والأسطورة التاريخية تقول بأن چوبتير Jupiter إله الآلهة كان يقوم بخلق الآدميين وهذا هو عمله - فدعاه الإله باكوس Bacchus إله الخمر إلى مناسبة عنده ليسهرا سويا إلا أن الإله چوبتير اعتذر وأفهمه أنه لا يستطيع الحضور لأنه ولابد عند الساعة السادسة صباحاً أن يبدأ فى

خلق الآدميين فألح عليه الإله باكوس وهو يؤكد له أن هذا الحفل ستحضرة الإلهة ديانا Diana والإلهة ڤينوس Venus إلهة الجمال ومن ثم لابد أن يكون موجوداً وظل باكوس يلح عليه وأخيرا قال له قاطعاً وعداً على نفسه بأنه سيعيده إلى مصنعه قبل الساعة السادسة حتى يبدأ فى خلق البنى آدميين فوافق چوبتير أمام هذا الوعد.... وفى الحفل تاه عقله من كثرة ما تعاطى من الخمر ومع ذلك أوصله باكوس إلى مصنعه، وهو فى حالة سيئة تقريباً فماذا فعل!؟ فى مصنعه وجد مثلا ألف رأس لألف إمرأة ووجد أذرع كثيرة لرجال ووجد كذلك آلاف القلوب لرجال ونساء وهو مازال فى حالته السيئة من كثرة تعاطى الخمر فى حفلة باكوس فماذا فعل!؟ لقد وضع قلب الرجل فى جسد المرأة وقلب المرأة فى جسد الرجل ووضع كذلك أرجل رجل لجسد امرأة ووضع ذراعى امرأة لجسد رجل وهكذا... وهكذا. ومن هذا اليوم لم يعد فى الدنيا رجل كامل الرجولة ولا امرأة كاملة الأنوثة... إلخ.

هذه طبعا خرافه أسطورة ليوضح لنا فلسفته والفيلسوف مكسنور داو Maxinor Dau يقصد أن يقول لنا: إن الرجل الذى به ٨٠٪ رجولة و٢٠٪ أنوثة يحب إمرأة فيها ٢٠٪ رجولة و٨٠٪ أنوثة حتى يأخذ العشرين فى المائة ويضعها على الثمانين فى المائة التى عنده ويصبح بذلك رجلا ١٠٠٪ وهكذا.. ونظرية الحب عند الفيلسوف ماكسنور داو Maxinor Dau قائمة على فكرة أو نظرية التكامل Jntegration بمعنى أن يكملا بعضهما ولذلك تجد رجلاً دميماً تحبه امرأة جميلة والعكس أيضا رجل جميل يحب واحدة فيها رجولة لأنها تكمل ماينقصه هو إذن المسألة مسألة تكامل. الحب عبارة عن عملية تكامل بين الرجولة

والأنوثة، وتتخذ أشكالاً لا حد لها على مدى عمر الإنسان بمعنى أن الإنسان وهو فى سن صغيرة فى مرحلة البلوغ لم يكن قد نضج بعد واختياره ليس صحيحا لما يحب ثم ينضج بعد ذلك فتتغير هذه الاختيارات ولكن يبقى شئ أصلى أو جذرى لا يتغير كثيراً..... هذه فكرة قرأتها «للعقاد» من حوالى ستين عاما تقريباً... بمعنى أنه يمكن الإشارة بعض الشئ لتكوين الإنسان منذ الطفولة وطبعا السبع سنوات الأولى هى التى تشكل الإنسان باقى عمره وحينما يتشكل صحيحاً دون عقد يصبح إنسانا ممتازا فى عمر الواحد والعشرين ويصبح سوياً وحينما يكون هناك خلل فى التربية أو إهانات أو تدليل زائد أو ميوعة ستظهر هذه الأشياء حتما فى شخصيته حينما يكبر هذا كلام علمى مفروغ منه... لو افترضنا مثلا أن هناك طفلا جميلاً ولطيفاً وأمه تدلله وتكلمه على أساس أنه بنت وتناديه كأنه بنت ستزرع فيه دون أن تدرى صفات معينه يختزنها داخله فى مخزن اللاوعى وحين يكبر لن يكون رجلا كما ينبغى... ولو أن الأم فى معاملاتها مع طفلها تهينه إهانات شديدة وتضربه وتحقره فستخلق منه إنساناً يريد أن ينتقم للإهانة والتحقير فى الأنثى التى تعيش معه ويصبح مريضاً بالسادية Sadism وهى تعذيب الآخرين أو الماشوسيزم Masochism أى لذة أن يتعذب ويهان هو.. إلخ والخلاصة والهام عندى أنه لابد أن نلاحظ هذه الأشياء ونتجنبها كما نتجنب النار تماما.. وهنا أريد أن أقول شيئا هاما: فى العالم المتحضر هناك قانون ضد الأم والأب اللذين يضربان أبناءهم أو يقومان بإهانتهم هذا القانون اسمه إمتهان الطفل Child abuse إذ أن إهانة الطفل فى سن لم ينضج فيه بعد من ٦ :٧ سنوات ستجعله

شخصية مختلفة. نابليون بونابرت Napoleon Bonapart كان يهان وهو طفل، فأراد أن يسيطر على العالم كله، ليعوض النقص الذى نشأ عليه من الخطأ أن يعلمونا فى المدارس أن عظمة القواد فى السيطرة واستعباد الناس هذا أسلوب خاطئ فى التربية فى المدارس وفى البيوت وفى المجتمعات لابد أن نعى هذه الأخطاء التربوية ونتوعى بالابتعاد عن مثل هذه المفاهيم والمعانى. مرحلة الطفولة مرحلة خطيرة جداً جداً إلى أقصى حد..

والخطأ الأكبر عندنا أن هذا العنف مع الأطفال من ضرب أو إهانة يحدث كرد فعل على مضايقات الطفل مثلا أو تقصيره أو إهماله... إلخ هذا يحدث كما قلت كرد فعل تلقائى من الكبار كالمدرس أو الأم أو الأب أو المجتمع نفسه، دون دراية أو وعى، أو فهم لأصول التربية السليمة فتتكون العقد فى هذه المرحلة للأسف الشديد. وكل ما أرجوه أن يتنبه إلى ذلك كل المهتمين بمسائل التربية حتى لا يؤدى هذا إلى شذوذ الطفل – لاقدر الله – ولو أن الشذوذ الجنسى ليس أساسه فقط التربية إنما أيضاً التكوين الفسيولوجى Physiology حيث يكون الإنسان فيه شئ أقرب للأنوثة منه إلى الرجولة أو الأنثى فيها شئ أقرب للرجولة منها للأنوثة فيحدث هذا الشذوذ بمعنى أن لا يكون السبب نفسيا فقط من سوء معاملة، والذى يقوى من هذا الخلل فى الإنسان البيئة المحيطة به والتى يعيش فيها والتى أيضا من خلالها ينفس عن نفسه فى لحظات عذابه تنفيساً خطأ فى بيت لا يعى الخطأ من الصواب.

٤

تأمل هذا الشلال وذاك الإعصار من
الأحاسيس التى فى دخيلة الإنسان.
إنها تجعله جديراً بأن يكون فيه شىء
من روح الله

ج ح

- ٤ -

من أجمل الأشياء التي أقر بها أنني عشت الإحساس بالتكامل Integration، وكان في هذا سعادة كبيرة في أول حب حقيقي لي. واستمر هذا الحب أربع سنوات إلى أن توفيت صاحبته في حادث سيارة أثر عليّ تأثيراً رهيباً وقوياً جدا. كان حباً متكاملاً إذ كانت فيه شبه أمومة بالنسبة لي، وبالتالي كان هناك وعي غير عادي لقد كانت تكبرني قليلا فكانت فكرة التكامل موجودة في العاطفة والإحساس بالاكتمال.. ولكن القدر وضع حداً، وأنهى المسألة قبل أن تأخذ سيرها الطبيعي. الحب الحقيقي في حياتي - على قلته - استمر لأن الجوانب المختلفة أكملت بعضها البعض بشكل جميل، ولكن القدر له دائما الكلمة الفصل، ويبقى بعد ذلك أن «الواحد» لا يمكن أن ينسى اللحظات والجوانب السعيدة التي قضاها في الإشراق العاطفي ولو كانت قصيرة.

بعد الصدمات الكبيرة في الحياة الإنسان يصبح ضعيفاً وهشاً مثل ورق «السوليفان» كما أنه يتشوق ويتوق في الحلم الحقيقي وأحلام اليقظة أن يعود مرة أخرى ويعيش ويوصل الأحاسيس والعواطف المتكاملة التي

مـرت به وهكذا توطدت عـلاقـتـى بتلك الأرملة ولمحت هى بالزواج وأنت تعلمين أن الفنان فى بلادنا لا يمكن أن يعيش من فنه بمعنى أن الفن لا يكفيه ولا يسد مطالبه المادية.. المهم أنها بنفسها سدت جميع الخانات، وانتقلت لأعيش فى بيتها بعد أن تزوجنا إلا أن هذا الزواج لم يستمر أكثر من سنة ونصف! وذلك لأنها كانت شديدة الغيرة.. لا بل كانت غيرة جنونية رغم جمالها الشديد! وذلك لأن الغيرة هذه مسألة طبع لا يشترط فيها وجود الجمال من عدمه. فقد تكون المرأة بعيدة تماما عن الجمال، ولكن عندها ثقة فى نفسها واتزان.. كان لديها أيضاً تسلط غريب لدرجة أنى أصبحت غير قادر على العمل أو الحركة من شدة مراقبتها لى. وأنا بحكم مهنتى شخصية عامة - مع التواضع الشديد منذ صغرى - لا يمكن أن أعيش فى دائرة محددة حتى أرضى غرورها .. ولهذا ضغطت علىّ جدا.. وأخيرا نقلت نفسى من الإسكندرية إلى مصر فى إحدى المدارس، ولم يكن لدى أى فكرة عن كيفية تطليقها وفى نفس الوقت، غير قادر على تحمل الحياة معها!! والدى رحمه الله كان واسع الأفق، فطلب منى ألا أتضايق وقال: «يمكنك أن تطلقها وأنت فى مصر» وفعلا تم هذا.. ثم جاءت وقابلتنى مقابلة غريبة جداً فى مصر.. ولم تكن تريد الطلاق، ولكن الأمر كان قد انتهى.. هذه ظاهريا كانت فى منتهى الإنسانية لكن مع المعاشرة أصبحت بالنسبة لى الحياة لا تحتمل إطلاقاً.. غير قادر على تحمل هذا السجن.. هذا نوع من الحياة التى عشتها فترة قصيرة من الزمن ولكن.. وللحقيقة لم تكن بالنسبة لى حبا حقيقيا والأكيد أننى كنت ومازلت فى ذاك الوقت فى حالة عاطفية قوية مع من رحلت ضحية

الحادث المؤسف.. الإنسان حين يألم ويصدم ويعانى فيمن يحب - وليس أى حب - ولكن فيمن يجد معه الإحساس بالتكامل يصبح هشا رخوا يتوهم عند أقرب احتكاك أنه أحب، وذلك لأنه يريد أن يوصل حالة العاطفة الأولى الحقيقية من أعماقه من أبعد أعماقه لا يريد بل يصل إلى حد الرفض التام فى أن يستوعب فكرة أن كل شىء انتهى وأن صاحبته رحلت إلى غير رجعة.. يا الله.. يا الله.

إنك يا سيدتى تجعلينى أغوص فى نفسى وأبعد بعيداً لأعترف لك بأنه كان لى حب حقيقى قبل هذا، وكان مع مدرسة.. كانت صغيرة حديثة التخرج وفى منتهى البراءة والبساطة، واليقظة فى نفسى الآن.. كانت تكتب مقالات فى مجلة فى الإسكندرية، وكنت معجباً جداً بأسلوبها وثقافتها كانت «غاوية» قراءة، وهذا نادر فى النساء أو الفتيات فى هذا السن الصغير بالذات.. أقصد أن أقول إنه كان فيها كل ما يحرك من المشاعر، والعواطف.. العواطف الرومانسية شىء يشبه الحب العذرى أو الأفلاطونى PLATONIC فبقيت معها فترة من الزمن كنا فيها على علاقة حميمة إلى أقصى ما يتصور العقل.. لقد جربت معنى الحب العذرى بسموه الرفيع فى تلك الفترة القصيرة والتى استغرقت حوالى عاما ونصف كان إنتاجى فيها كثيراً .. كثيراً ولو أن إنتاجى كثير فى كل الظروف ليس هناك ما يعطلنى سواء كان ظرفا سارا أو غير سار دائما العمل والحمد لله يسير والإنتاج مستمر.. ثم بعد ذلك خطبت الفتاة ولم أكن أستطيع أن أنافس خطيبها لأن ماهيتى صغيرة ولا تكاد تكفينى.. لقد كانت نورانية الشكل إلى أقصى مدى وكان شعرها داكنا.. أسرتنى بالصفات المصقولة التى بداخلها، والتى يندر أن

توجد فى هذا العصر. ولكن الإنسان هذا المخلوق، كما يحمل فى ثناياه عناصر حياته يحمل أيضاً عناصر فنائه، ثم يتجدد مرة أخرى كأنها دورة تلف بنا ليعود الإحساس ينبض من جديد والقلب والنفس يتشوقان للحياة، وللعيش دائمًا.. دائماً لا تتوقف. الحياة تستمر وتنادى علينا وتجذبنا وتشدنا لنعيش ونستمر لا توقف مع الحياة ولاموت.. فلا يمكن أن يعيش الموت داخل عقل وجسد ينبضان...

ولكن يجب أن لا ننسى أن الحب عطاء قبل كل شيء.. وعملية المنح لا يجب أن يكون فيها افتعال أو تمثيل.. وأرفض الذين يقولون «كلما أعطيت بعد الطرف الآخر» هذا الكلام ليس قاعدة العطاء حين يغرق الطرف الآخر لا يعطيه فرصة إلا أن يكون صادقاً مقبلاً وغير هذا تكون العلاقة مملة بل منفرة. ولكن من الهام والذى يجب أن نضعه دائما فى الاعتبار أن يكون هناك فوق الإعجاب! وفوق حتى التكامل!؟ أن تكون موجودة العتبة الثقافية التى يقفان عليها سويا. بمعنى أن المستوى الفكرى أقرب ما يكون ولا أقول متطابقا لكن على الأقل الاهتمامات وردود الأفعال.. بمعنى أوضح أن الاثنين يستطيعان أن يتكلما ويتحاورا ويتسامرا من مستوى ثقافى واحد يهمهما. فليس من المعقول أن يستمر محبان ليسا على مستوى فكرى واحد. بينما إذا كان لهما الخلفية الثقافية الواحدة فلابد من حتمية نجاح علاقتهما واستمرارها إلى ما شاء الله. طبعا أنا لا أطلب أن يتفلسفا أو يتفلسف أحد الأطراف على الآخر.. ولكن ما أطلبه أن تكون المرأة على مستوى رفيع روحياً، وفكرياً، ونفسياً هذا هو الطريق إلى التكامل، وهذا هو الحب الذى يعيش طويلا. حب ليس معتمداً فقط على الغريزة التى

سيأتى الوقت حتما ليسأمها ويرغب فى التجديد.. ولكن حين تكون العواطف «مضفرة» من تشكيلة بين الأفكار والأحاسيس ، ومع كل هذا يبذل الطرفان جهداً متجدداً ودائما ليكملا بعضهما أكثر وأكثر هنا تتكون وحدة بين الاثنين تعيش كثيراً. التكامل يا سيدتى أساس كل علاقة قوية سواء كانت الصداقة أو الحب أو الزواج.. عندما يبذل الإنسان جهداً ليحتفظ بالحب، جهداً سامياً نبيلاً ليصنع الوحدة التى لا تنفصم بسهولة فى هذه الحالة يكون أدى ما عليه أما بعد ذلك ما يأتى قدريا فهو من القدر لا دخل للإنسان فيه وليس عليه فى هذه الحالة إلا قبوله.. حتى هذا الإحساس يا الله مر علىّ «وفت فيه» عاطفة ثالثة. وكانت حقيقية وفيها تكامل ولكن لم تستطع صاحبتها، إلا أن تهاجر وتركتنى وحيداًلأن أسرتها كلها هاجرت، وطبعا لن تستطيع أن تبقى منفردة وحدها.. هى لم تستطع أن تتمرد على واقعها والأصعب والأدهى أننى أنا لم أتمكن من مساعدتها، لأنى ببساطة لم أكن أملك الإمكانيات.... هذه الحالة هى ما أسميها مسائل قدرية لا يسع المرء حيالها إلا التسليم بل الرضا.. اختفت هذه المرأة من وقتها، ولم أعرف عنها شيئا إلى يومنا هذا. الشيء المهم جداً أن استمرار الحب شيء نادر إما لعدم وجود التكامل أو للخبطات القدرية واستمرار الحب له مقومات هناك مثلا نوع من الناس يجب أن يكون تابعاً فلو تزوج إمرأة تحب السيطرة والتسلط أصبح سعيداً مدى حياته، والعكس صحيح فإذا أرادت واحدة أن تكون تابعة ولها رجل متسلط ستكون سعيدة مدى حياتها هذا هو التكامل ولا يكفى أن يكملا بعضهما من ناحية واحدة فقط لأن الإنسان ليس ناحية واحدة فقط بل عشرات الجوانب، والمسألة ليست مسألة علاقة جسدية

فقط فى الزواج، ولكنها علاقات كثيرة ومتشابكة، ولابد أن تحمل قدراً من النقاء الروحى الذى يجعل كل طرف يحاول أن يتفهم الآخر ويحترمه ويقدر نزعاته المختلفة فيكملان بعضهما البعض، وفى هذا تحقيق الوجود مع الطرف الآخر وهذا يساوى الدنيا كلها، لأنه معناه سعادة لا يمكن أن تنفصم.. أنا معك فى أن هناك كتب تعلم فن الحياة أو فن الزواج هذه الكتب وظيفتها الحقيقية أنها تشير فقط على أشياء ونقاط تسهل الفهم وتبسط الأمور وتساعد الإنسان على تحديدها... إنما السعادة أساسها الخبرات. فالخبرة وراء كل هذا وأكثر خبرة نتعلم منها هى الخطأ نحن مدينون للأخطاء التى ارتكبناها أكثر من النجاحات فى حياتنا بالنسبة لنمونا الشخصى والنفسى والفكرى. الخطأ يعلمنا أكثر من الصواب بشرط أن يكون لدى الإنسان وعى وفهم لمجريات الأمور. هذا طبعا عكس ما يكون الإنسان مغلق العقل يخطئ ثم يعتاد الخطأ ثم يعيش فى الخطأ.. أقصد من كلامى الإنسان المثقف. المستنير الذى يعيد النظر دائما فى المسائل من أولها إلى آخرها ولا يتركها هكذا كما هى إنما دائما يحللها ويفهمها. إننى لا أقبل الإنسان الذى يتناول كل أمر على أنه مسلمات.. مسلمات فينتهى به الأمر إلى أن يعيش كالحيوان بالغريزة فقط دون العقل.

ولكنى أريد أن أوضح شيئاً بأن هناك علاقات عاطفية كثيرة جداً وقد يعمر بعضها عمراً طويلاً ولكن لا أسميها حباً بمعناه السماوى العالى المتكامل ولكنها عواطف قوية جداً خذى مثلا الزواج قد يعمر كثيرا ولكن لا نستطيع أن نقول أنهما «قيس وليلى» الواقع وبعيداً عن الاعترافات يا سيدتى أننى مررت بمراحل عاطفية كثيرة وقوية إنما

المراحل التى هزتنى تماما هى المراحل الثلاثة التى كلمتك عنها. ليس كل إحساس حتى لو وصل إلى درجة الإشراق العاطفى أعطيه صفة الحب لا.. لا.. الحب طاقة وكل العباقرة الكبار الذين أغرقوا البشرية بمشاعرهم وعرفوا آفاق الحب الرحبّة والعميقة كان داخلهم طاقة.طاقة لا محدودة من الإشراق تنبع داخلهم.. هذا الإشراق هو ما عكسوه على البشرية. كثير من العباقرة كانوا بهذا الشكل وأيضا غيرهم كانوا غير ذلك!! لأن العبقرية ليس لها موازين ولا قوانين إلا التفرد التام فى كل شيء.

أما إذا كان الإنسان فى حالة ضيق.. فى حالة انكفاء على الذات لايحب أحدا، وهو شخصيا غير محبوب من أحد فى هذه الحالة تجدى عنده حالة من الحقد على الآخرين المحبين، ولا يكون سعيداً بالتواجد مع المحبين وهذا شعور مرعلى «وفت فيه» أيضا..

وتأتى على الإنسان والفنان بالذات لحظات يحتضن فيها نفسه.. يتوحد مع نفسه ويغوص داخلها وهو يتساءل لماذا كان هذا حباً ولماذا لاتتكرر هذه المشاعر والأحاسيس بنفس العمق الذى كان؟ وكما تقولين ما الذى يميز امرأة عن امرأة أخرى؟ من واقع أنى رسمت آلاف الوجوه أقول لك إنها النشأة التى نشأتها تميز كل امرأة عن الأخرى بمزايا معينة.. وأيا كان نوع الحياة التى تحياها المرأةفهى لا تفقد أنوثتها مطلقاً الأنوثة موجودة بكل تلك المشاعر حولها موجودة، وحية باستمرار مهما كانت النشأة فإن هذه المشاعر لا تروح ولكن ما هى الطريقة التى تظهر بها؟ هنا تختلف امرأة عن أخرى ما هى الطريقة

التى تظهر بها هذه الأنوثة أو لاتظهرها وكيف تستجيب أو لا تستجيب أو تنتظر أو تبادر هذه مسائل ترجع إلى شخصيتها التى تكونت فى مرحلة الطفولة.. أذكر هنا زواجى الثانى أذكر «عايدة» والدة «أيمن» إبنى الوحيد رحمها الله كان لديها رحابة صدر كبيرة على أساس أننى شخصية عامة وأن حولى كثيرين فكانت تعلن فى وسط أصحابى «والله أنا أحب من يحب صلاح» فواحدة من صديقاتها قالت لها: «طب أنا بأحب جوزك يا عايدة» فما كان منها إلا أن قالت لها: «علشان كده أنا بأحبك يا..» ها.. ها.. ها.. رحمها الله الشيء المؤسف أن «عايدة» مرضت وعانت كثيراً .. كثيراً كانت فنانة نحاتة فى الحجر ولها تمثال «عصفورة» أعتز به كثيراً كانت لها موهبة يقيناً. أذكر أكثر من مرة وقع فى يدها خطابات من أجنبيات وتسألنى فكنت أقول لها بأن هذه طريقتهم فى التعبير عن الإعجاب بلوحاتى وكل شعب وله طريقته فكانت رحمها الله تضحك وتمرر المسائل بشكل ودى تجنبا لأى نوع من المشاكل.. فى ذلك الوقت تعرفت على سيدة ألمانية إسمها «نورا» تعيش فى چينيف Gieneva بسويسرا هذه السيدة تعاقدت معى على أن تعمل لى معارض فى أوربا كلها وقد نفذت هذا جزئيا. هذه السيدة كانت تجيد لغات كثيرة غير الألمانية وكانت مأخوذة بطريقة فنى، ولديها مجموعة كبيرة من أعمالى اقتنتها وكانت زوجتى «عايدة» دائمة الترحيب بها. وهذا نوع من أنواع الأنوثة من جانب زوجتى بمعنى سعة الأفق لأن الأنوثة معنى واسع جداً ويشمل الطبيعة والسلوك والوعى والثقافة.. ولا يمكن أن تكون الأنوثة فى شريحة معينة من الناس أو نوعية معينة أو طبقة معينة لا.. لا.. لا ليس لها قاعدة أبداً

على الإطلاق الأنوثة هى الأنوثة سواء أكانت المرأة تعمل طبيبة أو محامية أو موظفة أو ناظرة.. وهذه الأنوثة هى التى تحرك مشاعر الجنس الآخر بسهولة متناهية من مجرد الاقتراب أو حتى السلام فقط طبعا فى حالة إذا كانت فياضة فى أنوثتها بالمعنى الذى شرحته طبيعيا وسلوكيا وهذا بالضرورة نتاج الثقافة. أيضاً لا يشترط لها بلد معينه رغم أن لى تجربة أتذكرها بكثير من السعادة التى تلمس أعماقى فقد سافرت إلى باريس Paris فى فرنسا فى عام ١٩٦٤ ومن حسن حظى أنى تعرفت على حرم وزير مالية إيران فى ذلك الوقت وأنا بقيت سته أشهر فى باريس وسكنت فى فندق خلف جامعة السربون Sarbonne University هذه السيدة كانت فرنسية وكانت على مستوى ثقافى كبير جداً لأنها تجيد أكثر من لغة بل وتقرأ بها الشعر كذلك لا يمكن أن ترى دون كتاب.. هذه السيده أتاحت لى معرفة الشعب الفرنسى والحياة الفرنسية... فمن الجائز جدا أن يدعوك الفرنسى فى المطاعم والأماكن العامة ولكن من الصعب أن يدخلك بيته إلا إذا وصل معك إلى درجة معينه من الصداقة.. هذه السيدة أطلعتنى على البيوتات والحياة الفرنسية الحقيقية فعلاً وبعد أن عدت بعد حوالى ستة شهور إلى مصر ظلت تبعث لى خطابات ومصيبتى أننى لا أرد على الخطابات طوال عمرى ومن شبابى ها.. ها.. ها أحد هذه الخطابات وقع فى يد «عايدة» زوجتى وكان مسار تفكه بيننا رحمها الله كانت شديدة التفهم وتجاهد قدر طاقتها لإحياء التكامل بيننا.. هذه السيدة الفرنسية كان لها إبنة شديدة الذكاء، وكانت تدرس فى جامعة السربون Sorbonne university التى أسكن أنا خلفها وبدأت هذه الابنة تتعلق بى تعلقاً شديداً

فلفتت أمها نظرى وهى تلمح بأنها مخطوبة وستتزوج فلا تفسد حياتها فتوقفت تماماً على أن «أعطيها وجه» كما يقولون وامتنعت عن لقائها وهذا كثيرا ما يحدث لأى رجل أن تتعلق به فتاة صغيرة. وخاصة إن كان فناناً أو يعمل فى مجال يكسبه بعض الشهرة ومثل هذه الأمور يمكن حلها بقدر من الكياسة وضبط النفس لأن المراهقات أو الصغيرات لا يكون عندهن التقدير السليم أو الصواب.. وقد كانت أمها امرأة ناضجة ومصقولة كانت فى الأربعينيات من العمر وهو سن النضج والوعى وعادة كل مرحلة من عمر الإنسان لها سمات خاصة عن المراحل التى سبقتها وعن المراحل التى ستأتى بعدها فليس من المعقول أن يكون إنسان فى سن الستين مثلا وتجدى فيه روح المرح والحيوية مثلما كان فى العشرين.. كل سن وله مشخصاته أنا مثلا الآن أحس، وأفهم اللفتات والهمسات بل وأترجم الصمت وأستطيع أن أقرأه وهذا راجع لأنى متخصص فى رسم الوجوه وعملية فن البورتريه Portrait تعنى فن تاريخ حياة الإنسان فعندما أرسم الشخص الذى أمامى إنما أرسمه من الداخل من «جوه» وبرتريهات «صلاح طاهر» ناجحة لهذا السبب، وليس لأنى متمكن من الفرشاة ولكن لأنى أرسم النفسية أرسم الداخل لأنى دارس سيكولوچى Psychology أى علم النفس ودرست كذلك سيكو أنا لسيس Psy Choanalysisأى التحليل النفسى وبتوسع كبير، ووصلت إلى أننى قمت بعلاج أشخاص قديماً فى الإسكندرية حيث مكثت حوالى أربع إلى خمس سنوات أشتغل بالعلاج النفسى. فى تلك الأيام كنت منصرفا انصرافاً شديداً للتبحر فى علم النفس والتحليل النفسى وكانت لى قراءات مستفيضه لفرويد Sigmend Freud وريڤرز

William Rivers وأدلر Adler وروجرز Rogers كل جبابرة التحليل النفسي قرأت لهم فوجدت في نفسي الاستعداد لكي أعالج من لديهم حالات مرضية نفسية والمذهل أنني وصلت ؟إلى حالات شفيت تماما واستطعت إصلاح تلك النفوس وعاد الوفاق بين الطرفين. إلا أنني لم أجد وقتا لهذا العمل الجليل الإنساني لأن مثل هذه الأعمال أولا لابد فيها من التخصص وثانيا لابد من التفرغ لها أي أنها تستولي على كل الوقت.. وكما تعلم أن هذا ليس تخصصي ولكن أتتني الرغبة والقدرة على مساعدة بعض الحالات لأني درست الفلسفة وعلم النفس كما قلت وبتوسع شديد ولكن كما تعلمين أن الفن يأخذ ويستحوذ على حياة الإنسان منا كلها حتى يحقق رسالة في هذا الفن بل إن الفن ياسيدتي محتاج إلى عشر حيوات أخرى حتى يحقق رسالته.

٥

تبًا للغربة والوحدة فلنراجع أنفسنا نحن معشر المحبين، فحتي الأنبياء كانوا يراجعون أنفسهم ويراجعهم الخالق ويلح عليهم

ج ح

- ٥ -

الفن أيضــًا حب بل هو عـشق فـى أعلى مـراتبـه، وأنا أتصـور أن الإنسان الذى يحس فى نفسه الملكات ولا يستطيع أن يحققها، قد يصل إلى الجنون الفعلى والحب أيضًا إذا كان من طرف واحد يصل بالطرف الآخر إلى الجنون .. مشاعر الإنسان غريبة جداً والنفس البشرية بحر متلاطم من المشاعر المتباينة العقل هو الذى يحكمها ويطويها ويسيطر عليها أما إذا العقل جنح من شدة الألم بمعنى من ضراوة الحب وقسوته فهنا يحدث الجنون القريب جداً من حالات «قيس وليلى» مثلا وتستطيع أن تلمس هذا التـغـيـيـر من خطاباتهم التى تحس منهـا على الفـور بأن «سكة» العقل تغيرت بشكل مـؤلم وهذا مرجعه فى بعض الحالات إلى الفراق.. هناك سيدات لا يحتـملن قسوة الفـراق أو واقـعـيـة الفراق وضرورته كأنها كانت فى حلم وأفاقت منه على حتمية الفراق فيحدث شئ مـثل المد والجذر فى المخ لكنه غير منتظم وغيـر مـحسوب كـما يحدث فى الطبيعة فمن هنا يحدث الخلل.. أيضاً قد لا يكون هناك فراق أو أسفار ولكنه السأم من العيش على وتيرة واحدة وفقط.. الإنسان أنا لا

أوافق على فكرة أنه حيوان بالمرة .. الإنسان أحسن صورة لمخلوق كرمه الله فلا يمكن أن يتساوى بالحيوان وحين يصل إلى هذه الدرجة لا قدر الله - بأن يحس أنه قريب من الحيوان لابد أن يضع فوراً الحواجز والمسافات الصارمة بينه وبين من يعاشر ولكن للأسف أن النتيجة فى هذه الحالة أن الطرف الآخر يشعر أنه ضحية ويبدأ فى المعاناة من الجفاف بعد أن كان غارقاً فى بحر من العواطف والأحاسيس وللأسف أن تلك الضحية لا تسأل نفسها مطلقاً .. مطلقاً!! يا سيدتى إن حساب النفس شئ رفيع جداً والنظر إلى الأمور ليل نهار بل وإعادة التقييم المستمر شئ يدل على أن الإنسان حىّ بمعنى أنه إنسان وليس حيوانا فعلا .. لو أن المحبين دائما فى حالة إعادة تقييم لعلاقاتهم العاطفية والأكثر محاسبة أنفسهم ومحاولة الامتزاج والتكامل الأكثر والأكثر مع الطرف الآخر لو أن هذا يحدث ما كان يمكن أن نجد قصة حب واحدة فاشلة أو لا تنتهى النهاية المأ مولة. الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وليس لعواطفه عمر محدد بل هو يتجدد باستمرار وكذلك وهبنا الله القدرة على الاكتشاف المتجدد والمستمر لأعماق من نعاشرهم، وبحكم مهنتى أو دراساتى أو موهبة منحها الخالق لى أستطيع أن أصل إلى أعماق الإنسان من جلستين أو ثلاثة وأعرف الكثير عن دخيلته، وهو جالس يتكلم أمامى هذا الكلام يرشدنى إلى آفاق كثيرة وطبعاً مع التواضع الشديد يذكرنى هذا بسقراط حين كان يمشى فى الأسواق ويبدأ فى إعطاء فلسفته للشباب وفى مرة سأله شاب سؤالا وهو يريد أن يفهم هذا الشاب بمعنى «شكله ايه» كما نقول فقال له «يابنى

تكلم أكثر حتى أراك أكثر، فهذه حقيقة الإنسان يعرف من حديثه ومن كلامه وتظهر أعماق نفسه حتى من الكلمات التى يداريها فهى تظهر أعماقه أيضًا ويستطيع الإنسان أو المحب أن يتغير إلى الأحسن وإلى الأرحم وإلى الأسمى بعد إعادة التقييم، أو سميها محاسبة النفس أو قولى سؤال النفس عن طريق الإيحاء.. بمعنى أن هذا الكنز الذى لا تنتهى ذخائره وهو العقل يوحى دائما للإنسان بأشياء وهناك كثيرون لايصدقون هذا الإيحاء وأنا أعتب عليهم جداً .جداً. جداً لابد للإنسان أن يصدق الإيحاء ويبدأ فى إعادة ترتيب أوراقه عند أول بارقة من الإيحاء من العقل أوحتى من القلب لأن فيهما مخزون البشرية منذ مولد الخليقة. على الإنسان أن لا يركن إلى الراحة أمام الإيحاءات بل يستجيب فوراً وسيكون هو الرابح دوما.

ومن جانب آخر أنا أؤمن إيماناً قوياً بالإيحاء الذاتى لأن حياتنا كلها سياسية، وفكرية، واقتصادية، واجتماعية وعاطفية كلها قائمة على الإيحاء الذاتى.. نحن نحرك أنفسنا عن طريق تفكيرنا وايحاءاتنا إذا اقتنعنا بها قبل ذلك ثم نتحرك بالقناعات، والإيحاءات التى بوعينا الجديد، وهذه عملية ليست بالبساطة التى نتصورها، فهى تتطلب أن تكون النفس طيعة حتى تستجيب وأنا الحمد لله تمكنت من هذا وتوسعت فيه، لأنى ما أزال إلى هذه اللحظة التى أتكلم فيها لا أشعر أننى عجوز رغم أننى على أبواب السادسة والثمانين من العمر لا أشعر أنى عجوز بمعنى أننى قابلت أكثر من مرة أناسا كانوا معى أيام المدرسة فنظرت

إليهم وقلت لنفسى: «أنا إيه إللى مقعدنى مع العجايز دول، ها.. ها.. ها «أتاريهم» كانوا معى فى المدرسة الابتدائى والثانوى.. هذا الشعور يا سيدتى ينطبق على كلام برناردشو «Your age is What you Feel عمرك هو ما تشعر به» الحمد لله رب العالمين هذه نعمة كبرى، وليس كلاما سطحيا وأنا أقول هذا الكلام بمناسبة كلمة الإيحاء فالإنسان يتحرك ويمرض، ويموت حتى عن طريق الإيحاء.. الإيحاء هو الذى يحرك الحياة فى البشر من الطفولة إلى الممات، والعلم يقول أشياء غريبة جداً عن الإيحاء بالنسبة للشيخوخة بمعنى أن المرء يشيخ حسب ما يوحى إليه أو بما يوحى هو لنفسه.. فلابد أن ننور الشباب بأن الإيحاء هو المحرك للحياة .. إذا كان الإيحاء خطأ فإنه يودى بالجماعات والشعوب إلى الهاوية، وإذا كان الإيحاء سويا وسليما فإنه يجعل الشعوب فى القمة الحضارية.. هذه نقطة هامة أحب أن ندق عليها دائما خلاصتها أن الإيحاء هو محرك الشعوب ودائما الحكام يبحثون عن وسائل الإيحاء ليتحكموا فى الشعوب وهذا يذكرني بالديكتاتوريين أو الشيوعيين قديما هم أحسن من استغل الإيحاء.. طبعا كان هذا قديماً إلا أن هذه الشعوب استنارت الآن ولم تعد تحتمل التضليل - المهم أن كل هذا متصل إتصالا وثيقا بكلمة الإيحاء.. نحن نتحرك عن طريق الإيحاء وأنت جئت لتقعدى معى هذه الجلسة عن طريق الإيحاء .. الإيحاء هو Suggestability هو بعث رسالة مستمرة من الوعى أو العقل الواعى إلى العقل الباطن والعقل الباطن هو الذى يسير حياتنا إلى الأبد .. فى العقل الباطن تراث البشرية كلها بل هو

نفسه تراث البشرية العقل الواعى هو المسئول عن العمليات الحسابية ٢×٢ إنما العقل الباطن شئ أبعد من هذا بألف مليون مرة .. هو الإلهام Inspiration والإلهام يأتى عن طريق العقل الباطن العمل الفنى المبتكر يأتى عن طريق العقل الباطن.. السخافات التى لشخصيات معينة تأتى عن طريق العقل الباطن شريطة أن يكون من أعطاها الشحنة هو العقل الواعى فى لحظة معينة ويمكن أن يمر على هذه الإشارة أو الشحنة من العقل الواعى حقبة من الزمن بمعنى سنوات ويظل العقل الباطن مختزنها إلى أن تخرج عند أول احتكاك .. وطبيعى أن العقل الواعى يعطى الإشارة أو الشحنة حسب جهل البنى آدم أو سموه فحينما يكون مستنيراً ومدركاً يستحيل أن يعطى إيحاءً سيئا أو إشارة مسيئة للغير.. هذه نقطة هامة.

الأحلام تأتى من العقل الباطن كأن يكون للمرء مشاكل أو قضايا مشغول بها.. أيضا معظم الأحلام أسبابها إما حرمان من شئ أو يتوق المرء إلى شئ أو أن القدر يريد أن يلفته نحو شئ معين. أنا أؤمن بالقدر إيماناً قويا جداً جداً جداً بأننا جزء من القدر.. القدر داخلنا.. الله داخلنا .. والله أقرب إلينا من حبل الوريد.. نحن مع الله باستمرار وكل ما استطعنا أن نوجد الصفاء بين الإنسان وبين الخالق عز وجل ستكون حياتنا فى منتهى السعادة لأن الخالق سبحانه وتعالى، أو هو كما يسميه جماعة الهنود العقل الكونى Cosmomind هذا العقل الكونى إذا عشنا فى طاعه له سنصل عن طريقه وسيوصلنا إلى آفاق رفيعة جداً لأن الله سبحانه وتعالى لا يريد الشقاء للبنى آدم، إنما يريد السعادة حتى تسير

الحياة ولكننا نحن للأسف الذين نوجد التعاسة لأنفسنا.. إذن فلنحاول أن نتصل بهذا العقل الكونى عن طريق التأملات، والتفكير فى الكون وما فيه، ونتخلص من كل ماهو ضار من الإيحاءات السيئة التى نصادفها فى حياتنا سواء عن طريق خبرات اليوم أو الكتب الخطأ أو المقالات الرخيصة، وأنا حين أقول الإيحاءات السيئة أو المقالات الرخيصة، لا أقصد الجنس بالذات لأنى أريد أن أقول بهذه المناسبة إن الحياة العاطفية، والمشاعر شئ طبيعى بالنسبة للبشر.. لابد أن ندرك أن الجنس مثل الطعام والشراب أنت مثلا موجودة، وجالسة أمامى تحدثينى وأنا أكلمك من أين جئنا؟ الواقع أننا جميعًا جئنا عن طريق الناحية الجنسية وتصبح غباوة وتفاهة وانغلاقًا فكريًا ونفسيًا حين نصطنع أو نقول «نكت» على هذا الواقع! نكت إيه!!! هل يجوز أن ينكت الإنسان على الطعام والشراب!! هذا شئ طبيعى جداً ولولا الجنس بين الوجود كله من حيوانات وحشرات وبنى آدميين حتى النبات نفسه يتناسل بخلايا معينة فلماذا العالم كله «ينكت» على هذا الواقع.. أنا مندهش لأن هذه الغريزة هى قوام الحياة والوجود المستمر لكل الكائنات الحية... كلنا نعيش على مختلف الأعمار والأشكال والغريزة دافع جميل وقوى وجذاب جداً من داخلنا يجذبنا إلى الجنس الآخر.. هذه سنة الحياة والزواج من سنن الحياة.

إن موضوع الحب من أول نظرة هذا كلام لا يعيش كثيراً اللهم إلا فى النادر ولكنه ليس قاعدة لأن الحب عبارة عن تجارب بين طرفين

فى جوانب متعددة من شخصيتهما وليس فقط الناحية الجسدية إنما لابد من جوانب التآخى الفكرى والاستجابة الروحية والنفسية والعاطفية جوانب كثيرة جداً لابد أن تغذى بهذه العاطفة ثم أن الله عز وجل منح المرأة قدرة كبيرة على هذا العطاء لأن أمومة المرأة تساوى الدنيا كلها، وبقدر ما يكون عند المرأة عطاء للأولاد والزوج ستقدم للإنسانية أجيالاً عظيمة جداً لأنه بمجرد أن يكبر الولد أو البنت، وهما مشبعان بشحنة رائعة من التربية السليمة النقية سيصبحان بلا عقد نفسية ولاتجد واحدا منهما يدمر ويحطم أو يؤكد نفسه بطريقة وقحة مثلا كلما كان هناك عطاء من الحب فى مرحلة الطفولة من الأم فإن هذا يعد مكسبًا كبيراً للمجتمع.. الذى سيصبح بأفراده فى المستقبل مجتمعًا ناضجاً خيراً متحضراً قابلا للثقافة والسمو.

أعود للحب من النظرة الأولى، وأقول، إنها ليست القاعدة الصحيحة ومع ذلك أنا أحتاط وأقول بأن هناك حالات نجحت بهذا الشكل ولكنها ليست قاعدة لدوام العاطفة، خاصة فى الحياة الزوجية إذ لابد أن يكون هناك مدة خطبة كافية حتى يتضح كل مافى داخل أى منهما لأن حياتهما ستدوم بعد ذلك ليس لشهور إنما «ده العمر كله» فكلما كان موجوداً ومحسوسا الوعى بالطرف الآخر وكل ما كانت هناك قدرة على العطاء للطرف الآخر ستعيش العاطفة إلى مالا نهاية.. إن مثل هذه القيم يمكن أن نزرعها فى أولادنا منذ الطفولة نغرس بذور هذه العواطف النبيلة السوية بدون إسراف، وبدون مبالغة ومرحلة الطفولة

التى أقصدها مرحلة السبع سنوات الأولى، لو أن هناك تناولا سيئًا للتربية سواء للبنت أو الولد سيكبر معقداً كما قلت بل وسيكون عنده نزعة للإنتقام أو نزعة سادية Sadism، أو فى حالة الإهانة المستمرة فسيصل إلى درجة من التلذذ من الإهانة، والضرب لأن الضرب يخلق تلذذا مع تكراره ومن جلوس الطفل وحده يبكى أو ينتحب هنا تخلق لذة من التقوقع على الذات وعندما يكبر يصبح شخصية غير سوية إذ أنه سينجذب إلى من تعذبه أى سيصبح شخصية أميل للشذوذ منها للطبيعية.

التطور الحضارى الذى حدث بعد فرويد Freud وبعد جماعة علم النفس الكبار الجشطلت Geshtalt بدأ يبسط الأمور فى العلاقات بين الأنثى والذكر بين الرجل والمرأة بين الشاب والشابة واعتبر أن الناحية الجنسية هى محور الحياة هذا طبعا رأى فرويد وكذلك آراء زملائه مع بعض التعديل وإن كان الجوهر واحدا لأننا حين نواجه حقيقة الحياة التى نحياها نجد أن هذه حقيقة متجددة فى كل ثانية فى جميع كائنات الحياة فى الإنسان والحيوان والزرع والطيور والحشرات استمرارية الحياة وتطور الحياة ووهج الحياة قائم على الجنس مع أننا نخشى أن نلمسه فى الحديث رغم أنه أساس ومحورى بمعنى أنه لو اختلف أو فقد أو «تلخبط» هذا الجنس بين زوجين يحدث الطلاق على الفور لماذا لانفهم هذا؟ ولماذا ليس واضحًا؟ ولماذا نداري عليه ونخجل منه!؟ ولكن ما يمهد لهذه العلاقة هو الحب وماهو الحب؟ هو الرغبة فى أن أعيش وأكمل

حياتى مع الإنسان الذى أحببت إذاً الحب عنصر مهم جداً المسألة ليست مسأله حيوانية فقط لا.. لا فهناك الاختيار وهناك الجاذبية بين الطرفين والقابلية أيضاً وعدم القابلية كل هذه أمور يجب أن تكون فى الحسبان فى الحياة العاطفية والحياة الزوجية لا يجب أن نتغافل عن هذه النقاط لأنها نبع الحياة التى نحياها..

بعد مسألة القبول وهنا أنبه مرة ثانية بالوقفة مع النفس المستمرة بمعنى أن لا يعيش أو تعيش الحب بلا عقل بلا مراجعة إذ أن هذه الأشياء التى أقول عنها إنما تزيد من المشاركة والعطاء فتتوطد أواصر العاطفة.

على الطرفين أن يتبعا تكتيكاً أو تكنيكا بمعنى أسلوب حياة مع الطرف الآخر وضمن هذا التكنيك الأنوثة بكل ما تحوى من التفهم والأمومة والدلال وإلى آخره، أيضاً الرجل عليه نفس العبء وهو ليس سهلاً وبسؤال النفس بعد ذلك يستطيعان أن يرتبطا ببعضهما وفى نفسيهما الشئ الكبير والعميق من الإحساس بالاطمئنان والأمان.

٦

لا تجرح سكون الكون وأنت تحيا

لأن هذا الهواء الذي حولـك

كان من أصوات شديدة الصدق

العبقرى والعطاء اللامتناهى

ج ح

- ٦ -

أنا عـينت في الأهرام عـام ١٩٦٦م وكـان الأسـتـاذ الجليل العظيم «محمد حسنين هيكل» هو الذى طلبنى للأهرام ومن يومها إلى هذا اليوم وأنا المستشار الفنى لجريدة الأهرام.. هى عبارة رمزية أكثر منها فعلية طبـعًـا ومنذ أن عـينت وأنا مكتـبى فى الدور السـادس بجـوار الكاتب المسـرحى والمفكر «توفـيق الحكيم» والروائى «إحـسان عـبـدالقـدوس» والمثقف العظيم «د. حسين فوزى» الذى هو السندباد الشهير وكان بيننا لقاءات مستمرة ومعنا كذلك الروائى الكبير «ثروت أباظة» والقصاص الكبـيـر «د. يوسف إدريس» بمعنى أن جلستنا فى مكتب توفيق الحكيم كانت كأنها صالون «فكر وفن» يومى، ولو أننى مثلا تأخرت فى مكتبى وانشغلت يكلمنى توفيق الحكيم ويقول لى: «إيه الحكاية تعالى حـالاً يا نجيلك إحنا» وكان يأتينا أناس كثيرون من الشخصيات العالمية.. أذكر أن أبا إيبان Aba Iban رئيس وزراء اسرائيل جاء «لتوفيق الحكيم» وكان هذا فى عهد الرئيس جمال عبدالناصر - ليزوره وهو يجيد العربية بل أنه كان أستاذا فى جامعة القاهرة وكانت الجلسة معه فكرية وثقافية

وأدبية وكان لها نتائج مجزية فقد عملت نوعا من التفاهم السياسى ذا مستوى رفيع مما يسعى إليه كبار الساسة تقريبا من مثل هذه اللقاءات. القذافى أيضا رئيس «ليبيا» كان صديقًا. الله يمسيه بكل خير، الأستاذ محمد حسنين هيكل حين أتى إلينا طلع الأستاذ هيكل هو الآخر لينضم لنا فى جلستنا كانت هذه اللقاءات غنية بثراء لا يمكن تصوره وقلت مراراً «ياليت أحد من الأهرام يسجل هذه الجلسات» لأنه كان يمكن أن يخرج منها كتب كاملة فى الفكر والأدب والفلسفة على درجة لا يستهان بها.. لن أنسى ما حييت هذه الأيام الرائعة التى قضيتها مع مجموعة من العباقرة الذين كنت أجالسهم لقد كان لها مذاق يختلف عن مذاق جلسات «العقاد» فى صا لونه.. العقاد جلسته كانت تقريباً فكرية تحليلية وفيها دائما ثورات وفيها تجديد وإضافة بينما جلسة الأهرام كنا نناقش فيها القضايا التى حولنا بل ويندر أن نتكلم فى موضوع فلسفى مطلق إلا إذا جاء أحدهم من الجامعة مثلا وخصيصاً عند ذلك فقط نبدى رأينا فى الفكر الذى أتى من أجله على غير «العقاد» الذى كان ينطلق من قضايا معينة بذاتها ويشبعها بحثاً ويقتلها تحليلا ها.. ها.. ها.. سنين عمرى كلها مع العقاد منذ أن كان عمرى تسعة عشر عاما إلى أن توفى عام ١٩٦٤م هذه الجلسات كانت مثمرة وغنية وأنا مدين لهذه العلاقات التى عشتها مع تلك الشخصيات العظيمة.

على الجانب الآخر كانت كوكب الشرق «أم كلثوم» تأتى إلى بيتى وكان «أيمن» ابنى له من العمر أربع سنوات كانت تحبه وتدلله كانت شخصية تثير الدهشة دوما.. أيضا هناك شخصيات كانت تأتينى وتقيم ندوات ولكنها فنية بحتة وليست فكرية وأنا أقصد الشاعر الفحل «بيرم

التونسى، والملحن العبقرى «زكريا أحمد» كانا كل يوم «خميس» يقيمان جلسة فى بيتى تبدأ فى الثامنة والنصف والذى يدهشك أن كثيرا من هذه الجلسات تنتهى فى العاشرة من صباح اليوم التالى ونحن نتناول الإفطار سويا.. الآن فى سنى هذا لا أستطيع أن أسهر حتى الصباح... كانت الجلسات ثرية جداً لدرجة أنه من الممكن أن يخرج كتاب قائم بذاته عن كل جلسة.. مداعبة «زكريا أحمد» اللطيفة فى كل مرة يأتى يقول لى: «والله أنا كنت ماشى جنب بيتك وقلت لنفسى والله أطلع أسلم عليك ها.. ها» ثم يلتفت إلى «بيرم التونسى» ويقول له بالحرف الواحد «حتة الشعر يا بيرم إللى أعطيتها لأم كلثوم أما أوريك لحنتها إزاى» ويتناول العود ويسمعنا شطرة بيت فقط ثم يترك العود ويبدأ يحكى لنا حكاية عن المشايخ المنشدين الذى عمل معهم «منهم الشيخ «سكر» الذى كان له بطانة ومنشدون عمل معهم «زكريا أحمد» فى بداية حياته فى الإنشاد وفى التلحين بل على ما أذكر الشيخ «سكر» أول من أنشد من تلحين «زكريا أحمد» طبعا إنشادا دينيا فقط فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم... ثم يحكى عن أيام ونوادر حدثت له مع العمد فى الصعيد فى شهر رمضان المعظم لأنه من المعروف أن الشيخ «زكريا أحمد» سافر وزار كل الصعيد المصرى وكل وجه بحرى مع فرق الإنشاد التى كان يعمل معها.. لقد كان يحكى لنا نوادر تجعلنا لا نتمالك أنفسنا من الضحك ثم فجأة يقول بالحرف الواحد: «والله أنا نسيت أسمعكم اللحن يا نهار أبيض» ويبدأ فى العزف لمدة ثلاث دقائق أخرى ثم يقفز إلى «حدوته» أخرى تاركا العود... الخلاصة أنها كانت جلسات ليس لها نظير ولا يمكن أن يكون لها وصف ولم أحضر مثلها فى

حياتى مطلقا وقد كان هذا يحدث كل يوم خميس على مدار سنوات.. «أم كلثوم» تأتينى فى الصباح لا تحب أن تتواجد معهما لأن بينهم جميعاً حساسيات لأنهما كانا غير راضين أو مستريحين للأجر الذى تدفعه «أم كلثوم» كانا يريانه «مش كفاية» أوغير كافٍ وكانا يتندران دائما بتلك السيرة عن طريق الضحك والهزار. إنما طبعا كانت «أم كلثوم» تقدرهما أى تقدر عبقريتهما تقديرا كبيرا جداً.. جداً.. جداً.. والحق أن الاثنين عبقريتان خارقتان للعادة إنهما تاريخ.. تاريخ الفن الموسيقى والأدب بالإضافة إلى أن روح كل منهما خفيفة وعندهما قبول لا نظير له.

من ذلك الوقت وبعد أن توفى الاثنان رحمها الله مازلت أقيم بعض الجلسات عندى كمثل الندوات وأحياناً يسمونها صالون «فكر وفن» أحيانا يقوم هذا الصالون على الموسيقى والغناء فيوجد من يكلمنا عن الموسيقى وتجدى الأصوات الحلوة صوت أو أكثر.. كما تعلمين أنا أحب الموسيقى الشرقية والغربية وكنت عازف «كمنجة» وأنا شاب والكمنجة مازالت عندى التى أحضرها لى أخى الأكبر رحمه الله.. وأحتفظ بأشرطة لقمم الموسيقى الكلاسيكية، وأنا أسمع منهم باستمتاع كبير جداً... وأحياناً الصالون يجمع شخصيات مفكرة مصقولة لبحث قضية واحدة، وعلى سبيل المثال مرة اتفقنا جميعاً على أن الموضوع الذى سيناقش فى ليلتنا هو موضوع السعادة.. أى نسمع رأى كل واحد فى السعادة فكان شيئا ممتعًا.. والسعادة قبل كل شىء لها مفاهيم لا تنتهى فهناك سعادة الصحة أو سعادة الشهوة أو سعادة المال أو سعادة الثقافة والقراءة بمعنى المحصول الثقافى الرفيع وكلها فيها تحقيق للذات وهذا يعنى أن الوصول إلى تحقيق الذات يأخذ مائة ألف طريقة.. كان موضوع السعادة هذا

ممتعاً لأن كل إنسان يتكلم وكأنه يشرح نفسه.. وأنا أفضل العدد القليل في الجلسة الواحدة بمعنى أن لا يزيد عن خمسة وعشرين زائرا مثلا لأنه لوزاد العدد عن هذا لا نستطيع التلاقى أو التفاهم وهكذا.. وهكذا.. بمعنى أن الفن والفكر والثقافة والموسيقى كان متضمناً فى هذه اللقاءات الجميلة المتعددة التى نجربها عندى أو عند غيرى.. إنها تجعل للحياة طعمًا ومذاقًا ثم أن هذا لا يمنع من أن أجلس بعد ذلك أقرأ قراءاتى الخاصة وأستغرق فى حياتى الثقافية ومكتبتى منذ كان لى من العمر احدى عشر سنة، وإلى الآن تحوى هذه المكتبة ستة وأربعين ألف كتاب. لو رجعت للأهرام فأنا رسمت لتوفيق الحكيم ثلاث برتريهات Portraits لوحات لوجهه حتى منتصف الصدر اللوحة الأولى عام ١٩٤٢م واللوحة الثانية عام ١٩٦٧م، الثالثة قبل أن يتوفى بعام واحد وهذه الأخيرة أعتبرها قصة فى عالم الفن.. كان الأستاذ «محمد حسنين هيكل» يمسيه الله بكل خير قال: «عاوزين صورة جديدة لتوفيق الحكيم» فقلت لنفسى: «أنا طول اليوم قاعد معه يعنى حافظه تمام ولكن هذا ليس كافيا..» وتوفيق الحكيم صاحب عادة غريبة جداً إما أن يتكلم ولا يستطيع أن يتكلم أحد غيره أو أن يلتزم الصمت المطبق لاوسط عنده بالمرة!وفى المرة الثالثة عملت له اللوحة وكانت أسرع صورة بورترية Portrait رسمتها فى حياتى كلها؟! جاءنى فى حجرتى حتى لا يزعجنا أحد، وابتدأت أتأهب وكلما أمسكت الفرشاة يبدأ هو يتكلم ويحكى حكايات وأنا أرقبه حتى يتوقف وما أن أبدأ إلا ويبدأ يتكلم ويحكى ويسترسل! فاستأذنت منه لدقيقة واحدة وناديت الدكتور «حسين فوزى» وهو صديق عمره لأنهما عاشا سويا فى باريس فهو صديقه

وحبيبه وفى نفس الوقت معنا دائما... لم يكن أمامى غير هذا لأنه لم يكف عن الكلام، أنا أريد أن أرسم واللوحة ليست عملا هينا لقد كانت بالحجم الطبيعى.. فطلبت من الدكتور «حسين فوزى» أن يشغل توفيق الحكيم بل .وأن يفكر ويسرح معه وقلت له: «كلمه يا أخى عن باريس» فقال لى بالحرف الواحد:

«لك على إن لا يتكلم بالمرة أنا جاى وياك حالاً» وعدنا سوياً بعد هذه الدقائق وجلسنا أمامه وأنا أتشاغل بألوانى وفرشاتى فإذا به يبادره قائلا:«يا خبر أبيض يا توفيق بك فاكر البنت بائعة التذاكر فى أوبرا باريس التى أحببتها وأحبتك».. توفيق الحكيم سرح.. وسكت.. ووضع يديه تحت ذقنه وشبك أصابعه وبقى يفكر وتوقف عن الكلام نهائياً.. أنا فى ذلك الوقت لم أضيع لحظة إنما بقيت أعمل فى اللوحة وأعمل وهو لم يتحرك مطلقًا لمدة ساعة ونصف كنت قد حددت معالم اللوحة وجهزت الأسس التى سأعمل عليها بعد ذلك... وأخيراً أنا الذى قلت له «كفى لأنى تعبت» فإلتفت إلى اللوحة وقال لى - وكأنى أسمع نبراته الآن تماما - قال: «يا نهار أبيض بالله عليك تمضيها» فقلت له: «أمضيها إزاى يا توفيق بك ده كلام!! هذه مقدمة فقط مثل أى واحد يصمم عمارة لكن يبقى البناء» فقال محذراً: لأ. لأ هتخسرها» ثم نادى «حسنين هيكل» وقال له: «هل هذه اللوحة تحتاج شغل» فقال له: «أبداً» فقال له: «والنبى تقول له يمضيها» فقلت له لا يمكن أن أمضيها لأنها فى حاجة لجلستين ثلاثة» فمد ذراعيه «أخذ اللوحة ولأول مرة فى حياته يضع الصورة فى حجرته ويغلق عليها بالمفتاح حتى لا أخسرها أو ألعب فيها ها.. ها.. ها..

٧

من المبتدأ تتصور البشرية بأنها يمكن أن تعرف الحقيقة بفكرها فيرفضون ويعتنقون أو يستبدلون، وفي المنتهي يوقنون بأن أيهم لم يأت بأكثر مما فى الكتاب.

ج ح

- ٧ -

«محمد محمود خليل» كان رئيس جمعية «محبى الفنون الجميلة» والذى سمى متحف الفن الحديث باسمه والذى كان بيته فى الأصل.. كان يقتنى الأعمال الفنية لعظماء الفنانين من العالم أجمع والتى أصبحت بأثمان خيالية الآن ثم اتخذ بيته هذا بكل مقتنياته الرائعة وعمل به المتحف الحديث المعروف. كان هو رئيسا للجمعية وأنا كنت فى ذلك الوقت مدير «المتحف الحديث» وكان رحمه الله يقيم جلسات ومناقشات لأعضاء الجمعية.. ثم توليت رئاسة الجمعية من حوالى اثنى عشر عاما وكان قبلى «بدر الدين أبو غازى» رحمه الله والذى كان وزير ثقافة مصر.. فيما مضى كان رؤساء الجمعية وأعضاء الجمعية أيضا من الشخصيات المرموقة وكان بعضهم له علاقة بالحركة الفنية العالمية وبعضهم لهم علاقات كبيرة فى فرنسا ومن ثم كانوا يستحضرون معارض من هناك مثل المعارض العالمية والدولية كانت تأتى فعلا عن طريقهم الشخصى وفى أحيان أخرى كانت الجمعية نفسها تعمل المعرض السنوى الذى تقيمه كل عام وتعطى جوائز وفى

أحيان أخرى كان المعرض نفسه يسافر إلى الخارج عن طريق هؤلاء الأعضاء أو الرؤساء.. الآن أصبحت الديموقراطية زائدة فى الجمعية ها.. ها.. هابمعنى أنها أصبحت متواضعة والمبنى نفسه يقوم بواجباته إلى حد ما. وعندما توليت الجمعية فكرنا فى أن يكون لها نشاط ثقافى مستمر.. أى محاضرة مثلا على مستوى رفيع جداً كل أسبوع من متخصصين فى ميادينهم وتكون حول الفن والفكر والثقافة والأسبوع الأخير من كل شهر يخصص دائما لجلسة استماع إلى الموسيقى الكلاسيك وكان يتولاها الدكتور «على عرفان» الأستاذ العظيم فى القصر العينى فرع الأمراض الباطنة والمعروف بهوايته الرفيعة للموسيقى الكلاسيك وقد تفضل بعمل غرفة مجهزة بأدوات الاستماع الدقيقة حتى يشعر الحاضرون وكأنهم يستمعون إلى أوركسترا حىّ، وطبعا بين هذه الأسابيع تكون هناك جلسة موسيقى شرقية أو غناء شرقى ثم كل عام نقيم معرضاً للطلائع الذين هم قبل الثلاثين من العمر ومعظم الفنانين البارزين والذين أصبح لهم مراكز مرموقة حصلوا على جائزة الطلائع ـ القيمة ماديا ـ من الجمعية إلى أن ظهرت وزارة الثقافة تولت الأمر برمته لأن لديها اعتمادات ضخمة وبالمناسبة لم يكن حضور المحاضرات مقصوراً على الأعضاء فقط. لا لا الجمعية ترحب دائما بوجود الضيوف والزوار... وبعض هذه المحاضرات نستبدلها بندوات مع شخص مسئول ثقافياً بمعنى أنه يكون قادرا على الإجابة على الأسئلة من السادة الحضور والندوات كثيرة كما تعلمين مع أساتذة الجامعات الذين يتكلمون عن الفن وفلسفة الفن وعن الجمال. وكما تعلمين أن الجمال مسألة نسبية من حيث هو جمال يبعث السرور

والانشراح فى النفس هو فعلا مسألة نسبية حسب ما نشأ عليه الفرد وهو طفل، وماتلقاه من ثقافة وعلى فكرة الثقافة تشمل الحواس أيضاً إذ لابد للإنسان المتكامل أن يكون إنساناً عنده ثقافة لحواسه بمعنى أن أذنه اعتادت على أن تسمع موسيقى جيدة وبذلك يستطيع أن يميز بين الغث والثمين فى الموسيقى وكذلك نفس الحال فى التصوير والنحت والرسم وفن العمارة كل هذه ثقافات ضرورية جداً ألا وهى ثقافة الحواس ولا أجد كثيرين يذكرون هذه النقطة. نقطة تثقيف الحواس بالمشاهدة والاستماع لا أحد أبداً يذكر هذا فى المحاضرات التى تقال أو فى المقالات المكتوبة لأنه لو لم تكن العين تألف الجمال وتعرفه فلابد أنها ستألف القبح وإذا اعتادت الأذن على سماع الموسيقى الهابطة الرخيصة فإنها ستعتاد عليها ولن نستطيع أن تستسيغ الموسيقى الجيدة وهذا ليس فيه فائدة أو أى نوع من التحضر للمجتمع... ياسيدتى على كل فرد من أفراد المجتمع أن يصقل نفسه ويثقفها ويرتفع بها إلى آفاق عالية وبشكل متعدد الجوانب بمعنى أن الثقافة ليست فقط فى قراءة القصص والروايات والمقالات الأدبية والشعر لا.. لا ليس هذا فقط وإنما لابد من تثقيف الحواس كلها ومن جميع الفنون حتى يستطيع الإنسان أن يميز بين الغث والثمين بل أن يستقبح ويضيق بالغث ويطالب بتغييره إن لم يستطع هو نفسه أن يغيره.. ومن هنا فإن مفهوم الجمال هو مسألة نسبية حرفة ويمكننى أن ألخصها فى جملة واحدة الجمال هو نسب فحينما نسمع قطعة موسيقية ممتازة مثلا فهذا يعنى أن الهارمونى Harmony أى التمازج الموجود بها مع البوينت Points والكاونتر بوينت Counter Points فى الكونشرتواكش Concerto Action أى حركة

الكونشرتو المتعلق بالسمفونية بحالها أو اللحن بحاله علاقة النغمة المعينة بالنغمة الآتية بعد ذلك كلها بنسب معينة تسحرنا لأنها صحيحة إذا كانت هذه النسب خطأ تصبح نشازاً ومنفرة وهذا ماينطبق تماما على الرسومات بل وعلى الحياة كلها فأعتقد أن كلمة نسب هى التى تلحض موضوع الجمال وفلسفة الجمال كلها.. طبعا فلسفة الجمال شئ متسع جداً وكل إنسان يستطيع أن يتبحر فيه كما يريد إلا أن فلسفة الجمال هى فلسفة الفن تقريباً وعلى الآباء والأمهات أن يدربوا أولادهم على مسألة ثقافة الحواس أو تثقيف الحواس حتى تصبح عادة فيهم.. فى تربيتى وتشكيلى لابنى «أيمن» كانت تربية سوية وقائمة على الأسس العلمية الصحيحة بالنسبة للتربية.. لقد لاحظت مراحل العمر الثلاث السبع سنين الأولى والسبع سنين الثانية ثم الثالثة فى المرحلة الأولى لابد من إشعال الخيال كل الأحاديث الموجهة له خيالية لأن قدره الخيال داخلة جبارة.. لو استطعنا أن نبذر بذور الخيال العظيم داخله إلى أن يكبر سنرى منه مايشبه المعجزات فى أى مجال.. وفى السبع سنين الثانية تبدأ عملية الملاحظة والمقارنة المنطق العقلى وفى هذا تثقيف للحواس بطريق غير مباشر.. ثم تأتى السبع سنين الثالثة بعد سن البلوغ حيث لابد من أن يعتنق رياضة من الرياضات البدنية لاستيعاب الطاقة المتفجرة داخله نزوعاً نحو الأجمل فى سلوكياته والأنسب فى مواقفه فى الحياة وبين الأصدقاء.. الإبهار فى الرياضة يأتى دوما من وجود النسب والإحساس بها وإذا فتش الشاب عن النسب وأحس بها فهو يعيش الجمال وهو يثقف حواسه لاشك. «وأيمن» ابنى اعتنق الرياضة اعتناقاً شديداً جداً وأجاد العوم والغطس فى أعماق

البحار حتى أصبح متخصصاً فيه ومن قبلها مارس كل الرياضات بأنواعها ومازال إلى الآن يمارس الرياضة ولايضيع وقته هباء مطلقا.. ثم لاتنسى أنه نشأ فى بيت ثقافى ومكتبتى ضخمة أمامه فيها كل أنواع الكتب القيمة، فنشأت فيه عادة القراءة بل أصبحت جزءا من حياته ولكن ماهو أروع من هذا أحفادى اثنان «صلاح وعلاء» كلاهما محب للقراءة بشكل كبير والصغير «علاء» لديه اتجاه فلسفى فى تفكيره لأنه قارئ وله الآن من العمر حوالى تسعة عشر عاما... أذكر أننى أهديته بمناسبة بلوغه الثانية عشرة دائرة معارف بريطانية مبسطة كانت حوالى أربعة وعشرين جزءا وضعها بنفسه فى بيتى لأنه لم يكن لديه مكان فى بيته وكان يأتى كثيراً ليقرأ فيها.. وهكذا تمكن الحفيدان من اللغة الإنجليزية ثم أتت الرياضة بعد ذلك فأصبحت الثقافة مع الرياضة يشكلان ويحققان فكرة التكامل التى تكلمت عنها سابقا ويؤسفنى أن لايكون لديهما دائما وقت لحضور جمعية «محبى الفنون الجميلة» ولكن «أيمن» ابنى يأتى رغم مشاغله الكثيرة ويعطى بعض المحاضرات بوسائل الإيضاح المختلفة والتى منها الشرائح Slides وذلك لأنه متمكن من مسألة التقاط الصور الفوتوغرافية وعمل السليدز Slides أى الشرائح على فكرة من ضمن الأشياء التى أفادتنى فى مطلع شبابى رغم أنها كانت رياضة عنيفة وأنا أخجل منها الآن هى رياضة الملاكمة لقد حصلت فيها على بطولات لمدة أربع سنوات بعد ذلك هجرت تلك الرياضة العنيفة وبقيت حوالى سبع سنوات لا أقوم بأى رياضة نهائيا وكانت النتيجة أن أعصابى تعبت وأصبحت دائما فى حالة من الضيق إلى أن شاء القدر وكنت عضواً فى نادى الجزيرة فى ذاك الوقت...

ربما كان هذا من حوالى خمسين سنة شاء القدر أن يأتى رجل هندى أستاذ متخصص فى اليوجا Yoga وقدم دورة تعليمية حضرتها ومن يومها اعتنقت هذه الرياضة رياضة اليوجا Yoga ثم بعد ذلك بدأت بقراءة الكتب عنها وليس فى الإمكان أن تمارس اليوجا من القراءة فقط فكان لابد من حضور الدروس. تتلخص فلسفة اليوجا فى كلمة واحدة وهى ما أنادى به ألا وهو التكامل Jntegration الإنسان جسم وعقل وروح فلابد من صقل الجسم بالرياضة ولابد من صقل العقل بالتفكير والثقافة والإدراك ولابد من صقل الروح بالرياضة الروحية أى التأملات واليوجا توصل إلى هذه المتطلبات الثلاث بمعنى أن وظيفة اليوجا أنها توجد هذا التكامل بين الجسم والعقل والروح بل ومن الخطأ أن نسمى اليوجا باسم رياضة لأنها ليست رياضة إنها نوع خاص من الحركات التى تؤدى ويكون فيها تركيز على جزء من العضلات والمفاصل التى تستفيد من الحركة ولا تؤدى بسرعة ولكن ببطء.. إنها تختلف عن الرياضة لكن فيها الرياضة البدنية نفسها وهناك أنواع مختلفة من اليوجا مثل الراجا يوجا Raga Yoga وهى اليوجا العقلية حتى ننمى حياتنا الفكرية.. إنها ليست ألعابا إنها ياسيدتى عمليات لاتقال ولاتسجل بسهولة فيها جلسات تأملية معينة والتركيز على مواضيع معينة واستنتاج أشياء معينة خاصة أنها رياضة عقلية تدرب العقل بقدرته على التفكير أكثر من المعتاد بمعنى التفكير المنطقى وليس التفكير الفنى أو الأدبى. التفكير العلمى المتصل بمنطق الأشياء نفسها.

وهناك المنترا يوجا Mantra Yoga وهى اليوجا الروحية وهى عبارة عن تأمل واختيار جمل معينة تقال والإنسان مسترخى تماما. وهذه

الجمل أسرار شخصية فكل إنسان له كلماته وجمله التى يقولها وليس لأحد أن يأخذ كلمات أو جمل الآخر وحينما علمنى إياها الأستاذ منعنى من أن أقول المانترا أى الجملة التى أتكلم وأتأمل بها. وكما ترين لايمكن أن تكشف هذه الأشياء تماما إنما تقال عناوين فقط كما أحدثك الآن وأخيرا الهاثا يوجا Hatha Yoga هى الرياضة الجسدية وتلك هى المعروفة فى العالم وفى المدارس الأوربية والأمريكية وهى ماتأخذ وقتا أطول أما التأمل Meditation الذى يحدث فى المنترا يوجا Mantra Yoga فيأخذ ربع ساعة فقط كل يوم وأستاذى اختار لى كلمة أرددها ومنعنى من أن أقولها لأى إنسان إنما أحتفظ بها لنفسى فقط.

الراجا يوجا Raja Yoga وهى اليوجا العقلية لتنمية الحياة الفكرية لا أمارسها ولكنى أمارس الرياضة الروحية والرياضة الجسدية إلا أننى توقفت وأهملت - ولا أدرى سبب ذلك - من حوالى ثلاث سنوات وأصبحت لا أمارس إلا كل أسبوعين مرة ومع ذلك وأؤكد لك أن اليوم الذى أؤدى فيه اليوجا كاملة أشعر معها أن كيانى متكامل بشكل لاتتصوريه إنها خسارة كبيرة أن أهمل اليوجا Yoga لأنى أشعر بحالات نفسية وصحية غير سليمة وغير مطمئنة وفى كل مرة أحاول أن أحكم إرادتى لا أستطيع ... ولكن لابد أن أعود لليوجا مرة أخرى وبالتدريج لأنها لاتؤدى مرة واحدة، بل يبدأ الإنسان بعشر دقائق ثم يزيد إلى أن يصل إلى ساعة أو ثلاثة أرباع ساعة. وهناك كثيرون يؤدونها فى نصف ساعة فقط... تتصورى أن الصلاة الإسلامية كلها حركات يوجا بل إنها مزيج من المانترا يوجا Mantra Yaga اليوجا الروحية والهاثا يوجا Hatha Yoga وهى اليوجا الجسدية وفى كتب اليوجا تجدينهم

يصورون حركات اليوجا وأمامها على الصفحة المقابلة حركات الصلاة الإسلامية ولافرق بينهما ها..ها.. ها.. من الأشياء المهمة والأساسية جداً فى اليوجا هو التنفس اليوجى وله أسلوب خاص ولقد وقف العلم مشدوها ومقدراً حين اكتشف أنه باليوجا تدخل كمية من الأكسوچين بهدوء ثم تختزنها فترة ثم تخرجها بعد ذلك ببطء وهذا هو التنفس اليوجى أى بالطريقة اليوجية وهى مهمة جداً للصحة الجسدية والدورة الدموية والقلب ثم تأتى المانترا يوجا Mantra Yoga التى هى تأمل ولها جمل معينة.

وهناك أحد اليوجيين الكبار يعيش فى سان فرانسيسكو بالولايات الأمريكية واسمه ماهزيشى ما هوشى Mahareshi Mahoshi هذا الرجل ابتدع خطاً مذهلا وجديدا فى اليوجا وهو التأمل السامى Trans cdental Meditation وهذا الرجل له أعوان يقدمون الدروس والدورات فى جميع أنحاء الكرة الأرضية.

وإاختصار المادة التى يقدمها أو الناحية التى أضافها هى TM وهما الحرفان الأولان من اسم التأمل السامى بالإنجليزية فى كل عام يرسل حوالى ٢٠٠ر٠٠٠ مائتى ألف من أعوانه العاملين فى مراكز اليوجا ليجوبوا العالم ويدرسوا الـ TM وفى تصوره أنه لو انتشر ومورس هذا المفهوم فى أنحاء المعمورة ستنتهى الحروب وتسود الإنسانية ويحب الأفراد بعضهم البعض أى أن الناس كلها ستألف بعضها ويبتعدون عن الحرب والشر والأنانية.. فى الحقيقة الـ TM رسالة كبيرة جداً وأنا شخصيا حضرت دروساً منها وأخذت جزءا آخر من أحد أعوان

مــاهريشى Mahareshi وهو يقـصـد أن تنتـهى الحـروب على أسـاس الرياضة الروحية وهو يريد أن يزيل من عقول الناس ونفوسهم البغضاء والكراهيـة والتحدى والعنف والأنانية التى تسبب الحروب كلهـا وعلى هذا يتـصـور أن الخـلاص فى أن ينشـر مـبـدأ TM أى التـأمل السـامى Transce Dental Meditation والأستاذ الذى يقدم الدرس هو الذى يقول لكل واحد على حدة كلمات التأمل لأن كل إنسان له تأمل خاص به إن هذا لايأتى عن طريق الكتب بل عن طريق المدرس نعم.. نعم كـمـا تقولين تماما إنه تأمل فى الذات الإلهيـة من خلال التأمل فى الوجـود وحين نبدأ التأمل لابد أن نفرغ عقولنا من أى عوائق أو مشاغل أو أفكار ونفكر فقط فى الفراغ اللانهائى والفراغ اللانهائى هو الوجـود والتفكير فى الوجود لايمكن معه أن يخطئ الإنسان ولكن حتى يصل المرء إلى هذه المرحلة محـتـاج رياضة روحـيـة كبـيرة وتدريب طويل! المسألة ليست بسهولة الكلام.. ولابد أن تؤدّى اليوجا فى مكان هادئ جداً بعيداً عن الضوضاء دون مقاطعة مطلقاً تتطلب أن يختار الإنسان مكاناً ليكن حجـرة مثلا هادئة جـداً من أى أصوات بشـرية.. لابد من الاسـتـرخـاء التام لتصفو الروح وتسبح فى الملكوت الكبيروتسمو إلى آفاق لانهائية مع التفكير فى الذات الإلهية. ومن أجل ممارسة اليوجا لابد من التدرج الكبير فمن أكبر الأخطاء أن تمارس اليوجا دفعة واحدة لأنها تحتاج إلى استـرخـاء تام وهى أبعد مايمكن عن الحركـات العنيـفة بل كل حـركة تؤدى ببطء واسترخاء وارتياح شديد جداً... حين أمارس اليوجا ومهما كنت فى حالة من الإجهاد الجسدى أو الضيق فإننى أنسى نفسى تماما

معها. وحينما أكون متكدراً أو غضبانا فإننى أنسى نفسى تماما معها إن العمل فى حد ذاته عبادة وخاصة لو كان عملا إبداعياً لم يسبقك إليه أحد بمعنى أن العمل الفنى إذا كان مكرراً أو مقلداً فلا يكون عملاً فنياً ولا يساوى شيئا. إنه يصبح صنعة والصنعة يستطيع كل واحد أن يتقنها ولكن الإبداع لايمكن لأنه ليس كل إنسان أينشتاين Albert Einshtein أو كل إنسان بتهوڤن Bethoven الإبداع شئ، العناية الإلهية ترعاه بشكل غريب وهو يتطلب دائما التأملات والممارسات ربما هذا مايجعلنى مبتهجاً دائما كما تقولين.. أنا لا أحب أن أكون مكتئبا أو حتى متجهماً ياساتر يارب.. أعوذ بالله أنا دائما متفائل والحمد لله لامكان عندى للتشاؤم أو التفكير الأسود.. أنا لا أعرف الكراهية ولا أحب أن أهين أحدا.. أنا لا أثور وإذا حدث وثرت مرة فإن ثورتى لثوان فقط.. لايمكن أن تداهمنى ثورة وأعيش داخلها - أعوذ بالله - لهذا أقول: إن العمل عبادة أنا مؤمن بهذه العبارة وهناك عبارة أيضا فى الإنجليزية تقول No Work is The Hardest Work بمعنى أن حالة اللا عمل هى فى حد ذاتها أصعب عمل. أى أن البطالة هى أصعب إحساس وخاصة لو كان العمل إبداعا بمعنى ابتكار... ثم أن نفس الابتكار مستويات. فهناك ابتكار رفيع جداً لدرجة أنه مذهل مثل سمفونيات العباقرة الكبار.. الابتكار شئ كبير وأنا أعتبره نعمة من الله سبحانه وتعالى.

٨

لا يفـرض علي الفنان أي مـعنـي إنه عتق الروح من الإسار هل لأنه خلاق؟

الأكيد بنعم

ح ج

- ٨ -

يشاء القدر أن يكون لى أحاديث كثيرة جداً فى الإذاعة والتليفزيون على ما أتذكر ابتداءً من عام ١٩٦١م بداية نشأة التليفزيون قدمت حوالى مائة وخمسين برنامجا تليفزيونيا حتى عام ١٩٦٥م وكان اسم البرنامج «عالم الفنون» حاولت أن أغطى كل ما يقال عن وحدة الفنون. تناولت معظم الفنون وعلاقتها بالفن التشكيلى وعرفت أن كل فن فيه جزء من الفن الآخر وذلك لأن الفن قوامه الوجدان أكثر من المنطق العقلى طبعاً. المنطق العقلى من حيث الأسلوب ضرورى لكن الوجدان هو الذى يحرك الفن، وهو أداة التعبير الكبيرة للفن. والوجدان الذى أعنيه هو العقل الباطن، وهذا العقل الباطن الذى ليس لحدوده آخر يأخذ تعليماته من العقل الواعى وحين يستجيب ويعمل وينتج فإنه يقدم ويعمل العجب.. وحينما نتكلم عن الإلهام والابتكار هناك تحليلات علمية كثيرة وتحليلات روحية كثيرة لموضوع الإلهام.. الجماعة اليوجيين والهنود يعتبرون أن هناك عقلاً كونياً Cosmic intelligence وأن كل واحد من البشر له محطة استقبال فى عقله ومحطة إرسال

أيضا. محطة الإرسال هى مايتكلم به ويؤكد شخصيته ووجهة نظره. محطة الاستقبال هى التى يتلقى عن طريقها الأفكار الرفيعة العالية من العناية الإلهيه بشكل رائع.. طبعا هذا التلقى يتطلب وعيا كبيرا بالثقافة وممارسة كبيرة جداً حتى يصل إلى هذا المستوى الذى هو عملية الإلهام والاستلهام.. علماء النفس يقولون بوجهة نظر أخرى وهى أن العقل الباطن هو خلاصة التراث البشرى كله من ملايين ملايين السنين، وخبرات البشرية كلها داخله فيه فإذا استطاع الإنسان أن يحرك هذا العقل الباطن ويستخلص منه مايريده ليقدم أعمالا فنية أو علمية أو إجتماعية.. فإنه يصبح ذا قدرة كبيرة جداً ويصل إلى آفاق رفيعة جداً فى المستوى الحضارى.. نحن لدينا الفنون السبعة وكذلك السينما والمسرح كل هذه الفنون متصلة من حيث التأليف والتكوين بالعقل الباطن للمؤلف نفسه وأثناء الأداء هناك أشياء كثيرة تتداخل.... طبعاً أنا كنت أتمنى أن يكون لدينا نقاد يتكلمون فى هذه المسائل لأنها تؤدى إلى تنوير المحيط الذى نعيش فيه والمجتمعات كذلك تريد أن تعرف أكثر وتفهم أكثر وأن لا ينظروا إلى المسائل على أنها تسلية. الفن ليس تسلية ولا هو ترف. الفن ضرورة أساسية ملحة لتكامل الحياة ولا يمكن أن نتصور أن هناك حياة بدون فن لأن الجانب الوجدانى فى الإنسان لابد أن يتغذى ويتحرك ويعمل وألا يضيع المرء لانعدام هذا التكامل ويصبح إنسانا ناقصا ويكون من المستحيل تحقيق أى بناء حضارى لو أن الفن ألغى مثلا.. بل لم يحدث هذا فى تاريخ البشرية من العصر الحجرى الأول أى من أربعين ألف سنة.. البناء الفنى للحضارت أساس لكل حضارة إننى أحاول أن أوضح العلاقات بين الفنون وبعضها وبأنها

تأخذ كلها من بعضها البعض لكن لكل فن لغته الخاصة. الفنون التشكيلية لها لغة الشكل واللون والمساحة والخط وكذلك استجابة الخطوط بعضها لبعض وتكميل واكتمال الألوان لبعضها البعض.. الخلاصة أنها عمليات طويلة عريضة نسميها لغة الشكل واللون والظل والمساحة وليس كما كان موجودا فى الكلاسيكية. فى الكلاسيكية الفن التشكيلى يصور الطبيعة كما هى على نحو واقعى. هذا الأسلوب الأكاديمى يدخل داخله الفنانون فى أول حياتهم حتى يتعلموا الصنعة التى هى التكنيك Technic إلا أن هذا التكنيك ليس هو الفن إنه جزء أساس من الفن فقط.. أما الفن فهو الذى يجمع بين الصنعة وموسيقية العمل أى الفن!! الصنعة لابد أن تكون موجودة ولكن إلى جانب هذا لابد أن يكون هناك حس موسيقى فنى وروحانية أيضا تنضح بذبذبات تحرك النفوس الراكدة عند بعض المتلقين كل هذه أشياء مهمة جداً وكل فن يحاول بلغته الخاصة أن يغفل هذا.. الأدب لغته الكلمات، الشعر لغته القوافى والعروض كل فن له لغته وتكنيكه وله قاموسه الخاص فكنت من خلال البرامج التى قدمتها أجتهد لأظهر معنى وحدة الفنون فيما أقدم وقد أعطيت وقتاً كبيراً للفن التشكيلى من بدايته من أربعين ألف سنةإلى القرن العشرين الذى نعيشه وقد استوفيت هذه المسألة بشكل كبير ولا تتصورى كم تعبت ولكن كان من يساعدنى ويحضر لى أدوات الإيضاح أو الأفلام مخرج البرنامج نفسه وقد نفعه وجوده معى فى الإخراج بعد ذلك هو بنفسه من قال لى هذا.. إذن الفن ضرورة ملحة للحياة وللبناء الحضارى ولأن الفن نفسه ثقافة ولا توجد حضارة بدون ثقافة فقد أخذت منى هذه البرامج جهداً كبيراً جداً.. جداً ثم سافرت إلى أوربا وبقيت هناك حوالى ثمانية أشهر

ولما عدت اعتذرت عن استمراري في هذا البرنامج ولكن من حين إلى آخر أقدم هذه النوعية نفسها ولكن بأسلوب آخر لأن كل برنامج يكون مستقلاً بذاته ويحمل عنواناً مختلفا.. ولكن الذي يؤسفني جداً وأتألم له أني حين سألت عن هذه البرامج وإمكانية إعادة بعضها قالوا لي في تلك الفترة: إنهم نظراً لقلة الأفلام قد اضطروا إلى مسحها وتسجيل مواد أخرى عليها من برامج أخرى! إن هذا مؤلم تماما لأني لا أستطيع أن أعيدها الآن إذا طلب مني ذلك أو إذا أردت أنا ذلك!!! طبعاً غير الفن التشكيلي في عالم الثقافة تحدثت عن الكثير من الآفاق المختلفة في الحياة الثقافية فيما لا يقل عن مائة برنامج آخر. وكلها سجلت عندي في البيت لأنه من الصعب على الآن الذهاب إلى الاستوديو في هذا السن وانتظاري للإضاءة والإعادة.. زمان كنت شاباً لا يهمني أي مجهود ها.. ها.. ها ولهذا كل تلك البرامج الأخرى أو غيرها تعمل عندي في بيتي أو في الأتليه أي الورشة الخاصة بي والتي كثيراً كثيراً ما أعمل بها خصوصا اللوحات التي من إبداعي... أما رسم لوحات الوجوه أو البورترية Portraits فإنها غالبا ما تكون في بيتي وأحيانا أرسم في جريدة الأهرام.. نحن جميعاً نبحث عن الجمال ياسيدتي ها.. ها.. ها.

تسأليني عن جمال القبح كفلسفة تجتاح العالم؟ لايمكن أن يكون القبح جميلا ولكن عبقرية الفنان هي التي تحول القبح إلى جمال لو أنني أسمع نغمات أو أصوات نشاز جداً فهذا قبح وأنا فرضاً مؤلف موسيقي وأريد أن أؤلف سيمفونية لو نقلت هذه الأصوات كما هي ستكون شيئا سيئا إنما عبقرية المؤلف أو الفنان أو المبدع أن يأخذ هذه

المادة الخام والتى هى فى الواقع قبيحة ويصنع منها معجزة مثال ذلك الموسيقى العالمى شتراوس Johon Strauss صاحب الفالس الكبير The great Walty كان سائراً فى أحد الأيام فى حدائق ڤينا Vienna فى النمسا فسمع عربة يجرها حصان ويجلس فيها عاشقان فى أحد طرق هذه الحديقة وبالمناسبة هى حدائق جميلة جداً.. استمع بانتباه إلى خبطات حافر الحصان على الأرض المبلطة.. ظل ينصت إلى الصوت ويفكر ويسجل نقاط موسيقية سريعة وكان سير هذه العربة التى يجرها الحصان هو مصدر الإلهام لموسيقى الفالس الكبير والذى سبب شهرة شتراوس كان هذا مثالا ياسيدتى.. المثال الآخر أن «نجيب محفوظ» كان معتاداً على الجلوس فى قهوة الفيشاوى الشهيرة فى سيدنا الحسين من حوالى أربعين سنة لا أذكر بالضبط، وقد جلست معه مرتين هناك فوجدنا القهوجى يحمل الصينية يأتى ويروح بنشاط مدهش وهو يردد «أيوه ياجميل.. أنا هنا.. حالاً جاى أنا شايفك ياجميل.. حالا.. حالاً.. إلخ» هذا القهوجى كان يصنع «جو» فى القهوة ها.. ها.. ها ثم اتضح أن هناك بنت الجيران التى تدعى أنها تملأ «القلل» فى الدور الثانى.. فكان أول مايراها يبدأ بهذا الغناء.. نجيب محفوظ» مراقب وملاحظ هذه الحكاية دون مائة إنسان آخر لم يلقوا بالاً بالمرة.. هذه مادةخام بسيطة وبدائية جداً لكن أمكن لعبقرية «نجيب محفوظ» أن تأخذ هذه المادة الخام البسيطة ويخرج منها قصة وحوارات فى خمسمائة صفحة. هنا عبقرية محفوظ تعمل وتشتعل ها.. ها.. ها إن الذى يصنع من الأشياء العادية والأحداث البسيطة فناً هو نفسه الذى يحول القبح إلى جمال إنها عبقرية الفنان وهى الأساس فى الفن.. «محفوظ» شخصية

خارقة والرائع فيه بساطته وسليقته اللطيفة .. متدفق فى العطاء بشكل لا حدود له وفى كل الأوقات وفى جميع سنوات عمره هو إنسان بعيد عن العقد ومركبات النقص تماما. على فكرة أنا كنت متوقعا سؤالك هذا عن الأدب النسائى وأقول لك: إن له مذاقاً حلواً وأنا أحبه كثيراً جداً وأقرأه قبل أن أنام فأجد فيه نغمة رقيقة ومتدفقة .. كلها إنسانية .. فيها نوع من الأمومة حتى فى المواقف الحرجة جداً لا تنسى المرأة الأمومة .. المرأة هى المرأة مهما أخذت دكتوراه هناك نوع من التدفق العاطفى المستمر والذى أساسه العاطفة. والعاطفة أساس كل شئ فى الحياة ولكنها تكون مجسدة أكثر فى الأدب النسائى المرأة تذكرنى بالطبيعة بل هى تساوى الطبيعة وأنا شربت من الطبيعة كثيراً وعملت لوحات لا يقل عددها عن ألف لوحة من الطبيعة وألف لوحة من الريف مع الفلاحين والزرع والنيل والمراكب الشراعية .. شربت من الطبيعة إلى أقصى حد لدرجة أن حدث عندى نوع من التخمة فلا أذهب ولا أرسم الطبيعة الآن لأن داخلى مخزون هائل من التصورات للطبيعة أستطيع أن أستجلبها وأستخدمها فى أى لحظة، وهناك مقولة عظيمة لليوناردو دافينش Leonardo de Vinci الرسام الشهير جداً يقول «الطبيعة هى الأستاذ لكل أستاذ» ولكن ليس معنى هذا أن يقلد الطبيعة إنما يعبر عنها لأن هناك فرقاً بين التقليد والتعبير. الطبيعة ليست كلها جميلة .. بمعنى أن الطبيعة مع بعضها وككل جميلة جداً .. الوجود قمة الجمال فى الحياة وليس هناك أروع من هذا لكن بعض الأجزاء الصغيرة ليست دائما جميلة فوظيفة الفن أن يعبر عن هذا المنظور أعلى مما يراه بل ويختلف عما يراه وألا يكون تقليدا بحتا .. التقليد البحت يكون فى المرحلة الأكاديمية

فى بدء حياة الفنان وهذا حتى يتقن الصنعة فيقلد الطبيعة بالتمام إلى أن ينضج فيعبر عن الطبيعة نعم ولا يكون ناقلاً لها وهناك فرق كبير بين المعنيين وأنا حين أرسم البورتريه Portrait لشخص يكون التصوير أو الفوتوغرافيا أدق منى مليون مره لو حاولت أن أنقله «بالملى والشعرة» أى مقلداً تماما له أو كما هو.. إن ما يهمنى هو شخصيته وروحه وما تنطوى عليه نفسه بمعنى حقيقته الداخلية كل هذا يتطلب من الفنان أن يشطح شطحات أعلى من الشئ الموجود أمامه ويحاول أن يغوص فى أعماق من أمامه ويعبر عن هذه الأعماق. فى هذه الحالة فقط اللوحة تنضح بالحياة وليس مجرد النقل فقط... الصنعة ممكن كل شخص يتعلمها ولكن الفن لا يستطيع كل واحد أن يتعلمه إلا طبعاً إذا كان لديه الموهبة سيدة محترمة فاتت سن الشباب أرادت أن أعمل لها بورتريه Portrait أى لوحة شخصية وقد صارحتنى بقولها «بس عايزة أكون حلوة كما كنت شابة بلا تجاعيد».. أنا شخصياً اقتنعت وقلت لها إن ماتطلبه هو المثالية فى الفن وقد كان هذا موجودا فى الفن الفرعونى وكذلك الفن الكلاسيكى فى اليونان حينما كانوا يعملون تمثالاً لأمير أو ملك أو وزير أيام الفراعنة وأيام اليونان فإذا كان من يرسموه أو ينحتوا تمثالا له من العمر ستة عشر عاما مثلا فلابد أن يرسموه فى الخامسة والثلاثين من العمر أى فى قمة النضج والشباب.. وإذا كان عمره خمسة وثمانين مثلا فإنهم يجسدونه أيضاً فى الخامسه والثلاثين وهذا يعنى أن ما طلبته هذه السيدة ليس جديداً.. بل لابد من المثالية لمن يريد لوحة له.. وذلك لأن البورترية Portrait هو تسجيل للشخص فى أحسن حالاته.. وكل واحد منا فى اليوم الواحد يكون له أكثر من

حـــال... الروعـــة فى الفن والفنان أن يكون قـــادراً على أن يلخص ويعتصر أحسن وأجمل ما فى الشخصية التى أمامه ويسجله بفرشاته... افرضى ياسيدتى أننى متعب ومضغوط! فلماذا تنطبع صورتى أو ينقلونها لى وأنا بهذا الشكل إلى الأبد!!؟ المهم عندى أن يكون الشبه موجودا عند انتهاء اللوحة بل وفى أحسن حالاته.. هذا هو الفن بالمعنى الحقيقى.. أن تكون روح الشخص موجودة وهذا ما أقصده.

وتسألينى أن أكلمك عن الروحانيات؟ وهل تعلمى أن الفن قوامه الروحانيات أكثر من أى شئ آخر.. أدوات التعبير فيه مادية ولكن النتيجة روحانية.. نحن أنفسنا كأجساد من هيكل عظمى وعضلات وأعصاب لكن حقيقتنا هى الروح.. الروح هى الأساس والجسم عبارة عن مسكن للروح وهذا المسكن لابد أن يكون فى حالة جيدة صحياً وبعيد عن الانفعلات السيئة كالحقد أو الكراهية أو حتى الغضب لأن الحياة فى معناها الرفيع الذى يمثله الفن هى الناحية الروحية.. هذه نقطة أساسية جداً ثم بعد ذلك أين نحن بجوار حقائق الوجود.. الفلاسفة كلهم يبدأون فلسفاتهم بالبحث عن الله سبحانه وتعالى وعن الروحانيات ويتكلمون فيها كثيراً ولكن يعجزون دائما عن الوصول بالمنطق الحسابى لهذا الموجود من حولنا!! لأنه مهما بلغ العقل منتهاه فأين هو من الوجود.. الذى هو شئ لا يمكن وصفه. بلايين البلايين من أشكال وأجواء ومقدرات مهما بلغ العقل البشرى من الرفعة.. يحلل هذا أو يفسر ذاك إلا أن حقائق الوجود تبقى فوق مستوى التفكير البشرى تماما وإلى أبعد الحدود ولذلك فالعقيدة مهمة جداً. العقيدة الروحية كل الأديان.. الأديان ضرورية لرعاية البشر وتسوية الطبيعة البشرية.. وجود هذه

الأديان بكل أشكالها ومسمياتها سواء كانت هندية، بوذية، يهودية، مسيحية، إسلامية، فارسية.. إلخ كل الأديان ضرورية ولم تتنزل اعتباطًا.. اللف والدوران حول هذا الموضوع لن يوصل لشيء «وأبو العلاء المعرى» له بيت شعر من أروع ما يمكن فى تفسير كلامى هذا يقول فيه:

تقفون والفلك المسخر دائر
وتقدرون وتضحك الأقدار

إنه مفكر عظيم وهو يبين أنه مهما قدر الفلاسفة والحكماء فهذا التقدير ليس النهائى أبداً ولا هو الحقيقة المطلقة مهما وصلوا إلى أعلى مراتب الفكر البشرى... العقل البشرى عظيم جداً لا أحد يستطيع أن يقلل من قيمته لكن الوجود أعمق وأبعد آلاف آلاف البلايين من العقل البشرى.. يعنى ياسيدتى لما الإنسان يفكر كيف أن التليفون المحمول الذى يوضع فى الجيب كيف يعمل من أى مكان وأى قارة!! العلم غير قادر على أن يقول لنا كيف يحدث هذا.. كل الذى استطاعوه أن يقولوا إنها ذبذبات وموجات!! مثل جدول الضرب الذى يدخل فى أساس الرياضيات العلمية وهذا تفكير بدائى جداً إنما الحقائق المطلقة أعلى بلايين المرات من قدرة العقل البشرى على أن يقول كلمته فيها... إذن لابد من العقيدة.. والعقيدة ليست ساذجة إنما هى قائمة على وعى روحى رفيع إلى أقصى حد. وكلما كان الوعى الروحى والثقافة الروحية والصقل الروحى موجودا فإنه يوصل الإنسان إلى سعادة مطلقة وكلما كان داخله فقر وعجز من هذا الوعى والصقل يعيش فى حيرة إلى آخر لحظة فى حياته.

هناك عالم من أصل ألمانى اسمه إيريك فروم Eric From يعيش فى أمـريكا ألف كـتـاباً من عـشـرين سنة اسـمـه الدين والتـحليل النفـسى Religion and Psychoan alysis كتابه هذا رائع وهو نفسه فيلسوف من أحسن الفلاسفة المعاصرين ويقول فى مقدمة الكتاب للقارىء: أنا مؤمن بالأديان وأهمـيتـهـا وضـرورتها كـسليـقـة فى الإنسـان ولكن ياعـزيزى القارىء سنتفق على مفهوم قبل أن ندخل فى الموضوع.. افهم تماما أن الأديان قائمة على الرمز symbol وذلك لأن هناك أوصافا وأشكالا فى الأديان لا يمكن للإنسان أن يجسدها بعقله كما سمعها.. إنها رموز فقط ثم يوضح بعد ذلك بما معناه أن المفكرين فى البشرية لا يتعدوا الواحد فى الألف والـ ٩٩٩ الباقون أناس عـاديون عقولهم محدودة جداً ولكنهم آدمـيون ولابد أن يحـيوا ويتكيـفوا ويُشبـعوا وهنا هذه الرمـوز هى التى تسيرهم مثل الطفل حين تربيه بعقله المحدود لا نستطيع مثلا أن نعطيه آراء فلسـفـيـة وله من العـمر سـبـع سنوات بل لابد أن نعطيـه على قـدر مستوى نضجه وكلما كبر نستطيع أن نتوسع معه فى الأساليب والتعابير كذلك البشر تماما. إريك فروم Eric From يقول: إن عنصر الرمز أساس فى فهم الأديان... هذا يذكرنى بواقعة كنت فيها مع الشيخ «الباقورى» رحمه الله فى لندن وفى ذلك المحفل قال لـه أحد الشباب المتمرد: «ما مـعنى ياسـيـدنا الشـيخ أن يدخل الإنسـان النار ويشـوى، وكلما احـتـرق يتجدد جلده حتى تتكرر عـملية العذاب.. إن الله فـوق هذا الوصـف.. المهم أن هذا الشاب كـان ثائرا كما أنه كان قارئا للفلسفة!!.. فى الحقيقة أنا توقعت أن الشيخ «الباقورى» رحـمه الله سيثور ويغضب إلا أنه على العكس تدرج معه فى حكمة الترهيب فى الآيات القرآنية وعلوم التفسير

الدقيقة إلى أن أقنع الشاب إقناعًا عقليًا فتح أمامه آفاقًا من التفكير والتدبر فى تفسير الآيات القرآنية.... تصورى أنه أعجبنى جداً ياسيدتى لأنه رجل شيخ ومتدين بل الروح الدينية متأصلة فيه إلا أن أفقه واسع ويستطيع أن يجيب ويصبر على أسئلة أمثال هذا الشاب دون تذمر أو ضيق.. الحق أعجبنى جداً.. جداً. نعم.. نعم التسابيح والأوراد كلها رموز ولها فائدة كبيرة جداً.. وهناك مفكرون حين يقرأون هذا الكلام يثورون ثورة عارمة أولا إلا أنهم فى النهاية يؤمنون إيماناً قاطعاً لا رجعة بعده ومع ذلك يضعون كلمة الرمز ومفهوم الرمز لأن الحياة نفسها مليئة بالرمز. العواطف كلها رمز المشاعر كلها رمز. وتسألينى عن موقع الجزاء والعقاب.. اسمعى سأقول لك شيئا هاما فى الفلسفة الهندية - من باب التجوال فى الأفكار - هذا الشىء هو أنه حين يموت الإنسان لا يقولون إنه مات إنما يقولون إن الروح فارقت جسده لأنها ستدخل جسداً آخراً، لأن الروح باقية، تعيش إلى الأبد وتتجسد فى أجساد معينة وتستفيد فائدة كبيرة من هذا لأنها تتثقف مثل أى إنسان يتثقف فى حياته. وهذا هو تناسخ الأرواح عندهم ويوجد عندهم أربعمائة ديانة وعلى فكرهم فإن الجنة والنار على الأرض حين يكون الإنسان سعيداً يحس أنه فى الجنة.. حين يكون هناك حب رفيع ومتعدد الجوانب. ونقى نحس بالجنة وحين يحدث عكس ذلك نحس أننا فى الجحيم. والظلم الذى تتكلمين عنه فيه نفس الشىء.. بمعنى أننى حين أُظلم أو أُمتهن وأكون غير قادر على عمل شىء وأعيتنى الحيل فى النهاية أتمنى من أعماقى أن تلك الشخصية تحترق أو يدهسها قطار وتجد أن الحياة نفسها أو العناية الألهية فعلت هذا وهذا يعنى أن الحياة

مليئة بالتوازن والتكامل وليس هناك ظلم أبدى ولا حب أبدى ولا سعادة أبدية.

وعلى العموم نحن فى حياتنا - وهذه نقطة مهمة جداً - نحن نتعلم من الخطأ ومن الشر أكثر مما نتعلم من الخير. نحن نصقل «ونتسنفر» ونصبح آدميين ومتحضرين بل ومتدينين من مواجهتنا للشر والخطأ أكثر من معايشتنا للسعادة. هذه مسائل مهمة جداً وليست كلاما سطحياً. وهو أيضًا قانون الحياة. الحياة سالب وموجب.. الكهرباء لو لم تكن سالبًا وموجبًا ما أنارت ولا كانت هناك طاقة.. قانون الجاذبية فيه سالب وموجب. التليفون الذى نكلم به أمريكا هذا شىء مذهل يذهب العقل وهو ليس بالقليل.. شىء من وراء العقل ولكننا اعتدنا عليه إلا أنه فوق مستوى تفكير البشر ولكنها طاقة موجودة، المهم كيف نسخرها ونستغلها كيف اكتشفناها أصلا؟ هذه اعتبارات مذهلة، الحديث عنها يحتاج عشرات الكتب..

وبمناسبة الحديث عن الكتب أنا اشتريت كتاباً من حوالى خمس سنوات ولعلنى كلمتك عنه من قبل لكن مع الأسف فقد منى هذا الكتاب لأنى بدأت أضع كتبى على الأرض من كثرتها الكتاب اسمه «التليفزيون ممكن أن يبنى حضارة وممكن أن يهدم حضارة» الكتاب يتحدث فى المقدمة عن التليفزيون ويقول: إن العالم كله بل البشرية كلها تتحرك بالإيحائية suggestability ونحن كبشر، الأديان زرعت فى نفوسنا منذ الطفولة عن طريق الإيحاء وليس عن طريق المنطق والإيحاء هو تقريبا مثل التنويم المغناطيسى الذى يستمر بالممارسة

وحتى أوضح هذه النقطة سأروى حكاية قالها لى العقاد رحمه الله:
إنسان رأى حلماً سيئاً جداً فذهب لإنسان آخر يفهم فى تفسير الأحلام
فقال له هذا حلم سيء بالفعل لأنك سترى سبع سنين فيها بلاء شديد
ونكد فسأله صاحب الحلم: وبعد هذه السبع سنوات ماذا سيكون الحال
فقال له: الأمر بسيط ستعتاد على ذلك... الحكاية تقول إن الإنسان
حسب تعوده فلو كان معتادا على رائحة من نوع معين مثلا فى مكانه
إذا غابت سأل عنها بصرف النظر عن كونها رائحة جميلة أو كريهة
بمعنى أن حواسنا تتثقف وتصقل مثل أى شيء آخر فلو اعتدنا على
القبح سنألف القبح ولو اعتدنا على الجمال سنألف الجمال ونرفض القبح
فالتعليم بمعناه الرفيع والتربية بمعناها الرفيع الحضارى الذى يوجد
مجتمعا متحضرا هو الإيحاء أو الإيحائية Suggestability.. إنهم
يستغلون هذه الطاقة الإيحائية الموجودة فى البشر ويزرعون فيه
خصائص حضارية منذ طفولته حتى أنهم فى الدول المتحضرة لا
يمكن أن يسمحوا للأب أوالأم أن يضربا طفلهما ولو حدث هذا فإن
المحكمة تحاكمهما لأن الضرب سيسبب له عقدا نفسية وسينتقم من
البشرية فيما بعده بل وتخلق منه شخصية شريرة.. للأسف عندنا
التربية كلها ضرب وهذه نفسها التى تخلق التملق فى الشخصية
الموجودة فى الشعوب المتخلفة أو النامية كما يسمونها سواء كان موظفا
صغيرا أو كبيرا يتملق الحاكم أو الرئيس حتى يبقى فى وظيفته أو
موقعه.. نحن لا نتطاول على الحاكم لكن العبادة لله فقط.. الحكام
العباقرة الكبار على مدار التاريخ كانوا يرفضون هذه الأساليب لأنها
غير سديدة.. المهم أن التليفزيون عبارة عن طاقة إيحائية مستمرة مثل

التنويم المغناطيسى وكل الأعمار تجلس أمام التليفزيون.. فهذا هو الإيحاء.. وهذه فى نفس الوقت طاقة جبارة نستطيع عن طريقها أن نزرع بذورا طيبة ونافعة فى الشعب.. وعلى العكس حين نقدم برامج تافهة وسطحية ومسلية بطريقة رخيصة.. وأنا حضرت برنامجا فى لندن عام ١٩٦٤م وكان هناك تضخم مالى وكما هو معروف تليفزيون لندن عظيم ومشهور وأعتقد أنه أحسن تليفزيون فى العالم يعالج ويشرح مثل هذه المسائل للشعب - وأعتقد أنى قلت لك هذا من قبل - وفعلا حاول تليفزيون لندن أن يعالج ويشرح موقف الشعب الواجب والدولة أيضًا من هذا التضخم المالى وكان أن البرنامج أحضر وزير المالية فى الحكومة وكذلك وزير مالية حكومة الظل المعارضة وكان المذيع لا يقل ثقافة اقتصادية عن الاثنين.. المذيع هناك لا يضيع وقت البرنامج فى كلمات يلوكها مثل وياترى ياأفندم.. وياترى ياأفندم.. المذيع الإنجليزى مثقف ثقافة رفيعة جداً وأيضًا مصقول دون ضوضاء أوتصنع أو تطاول.. واستمرت المناقشة حوالى نصف ساعة حتى يوقظوا الشعب ويجعلوه يتعاون مع الحكومة فى إنقاذ الدولة من التضخم المالى وهذا هو البناء الحضارى للتليفزيون الموجود فى الكتاب الذى ذكرته.. ولكن أن نبقى طوال الوقت نسلى الشعب بتفاهات ونضيع له وقته فى السطحية لمجرد الإضحاك فهذا شىء لا يحتمل رغم أن التليفزيون بدأ بداية رفيعة جداً أنا كنت رئيس اللجنة التى كانت مهمتها اختيار المذيعات والمذيعين من أول عام ١٩٦١م وكنا نغربلهم ونأخذ الصفوة.. الإخلاص للبلد يحتم على كل إنسان أن يتدارك كثيرا من الأمور فى كل المجالات تقريبًا ولا مانع من أن تخرج هذه الأخطاء والمآخذ فى

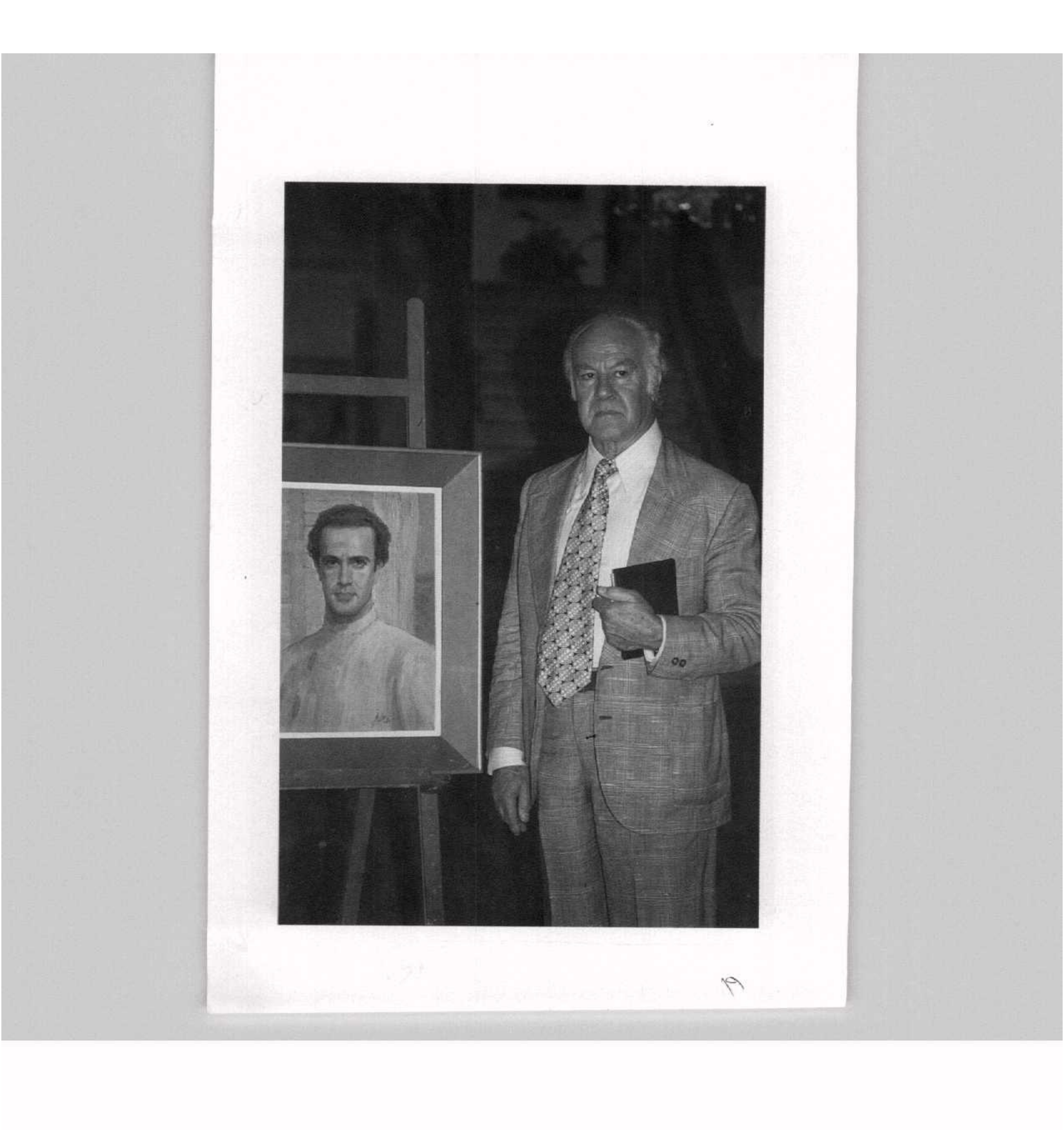
البرامج حتى تنفر الناس منها ثم تقدم الصورة الجميلة المأمولة مع الشرح والتوضيح لماذا كان هذا خطأ ولماذا هذا صواب وما فائدته وما جدواه وما أقترحه وأتمنى من الله سبحانه وتعالى أن يتحقق هو برنامج يومى مدته ثلاثة أرباع الساعة وعنوانه «لماذا وكيف»!؟ وبدايةً نعمل قائمة بالمآخذ التى نشكو منها كل يوم ستكون أكثر من ألف مأخذ ونعطى لكل مأخذ عنوانا وننتقى له أكبر المتخصصين فى مصر على أن يكون المذيع لايقل ثقافة عن هذا المتخصص وسأضرب مثلا ببرنامجين إثنين على سبيل المثال.. وطبعا ما سأقوله قابل للتعديل.. أو لا نأتى لمسألة عدم الاكتراث فى الإنتاج وكثير من العاملين لديهم الشىء الكثير من عدم الاكتراث.. فى البداية تركز الكاميرا على عبارة شديدة الإيحاء للمشاهد مثل عبارة «الوقت هو العمر» ونأتى بنماذج مصورة دراميا لتلاميذ يتسلقون سور المدرسة أو موظف يضع الدوسيهات أمامه تطاول السقف ويأكل «ساندوتش» أو يدخل فى قافية مع أحد زملائه وطابور أصحاب المصالح كل يقف فى انتظار دوره ثم يقول البرنامج لماذا يحدث هذا السلوك وكيفية العلاج من المتخصص فى ربع ساعة ثانية ثم تأتى الربع ساعة الثالثة حيث يعرض فيها نماذج رائعة من الإنتاج فى اليابان مثلاً حيث يقولوا للعامل: استرح قليلاً فيرفض قائلاً: أنا اليابان وأريد أن أعمل من أجل نهضتها وهكذا وكل بضعة دقائق تركز الكاميرا على عبارة «الوقت هو العمر» وهذا الربع الثالث مهم حتى لا يحدث إحباط للمشاهد ويأس وطبعا الشخص المتخصص يفسر لماذا وكيف العلاج.

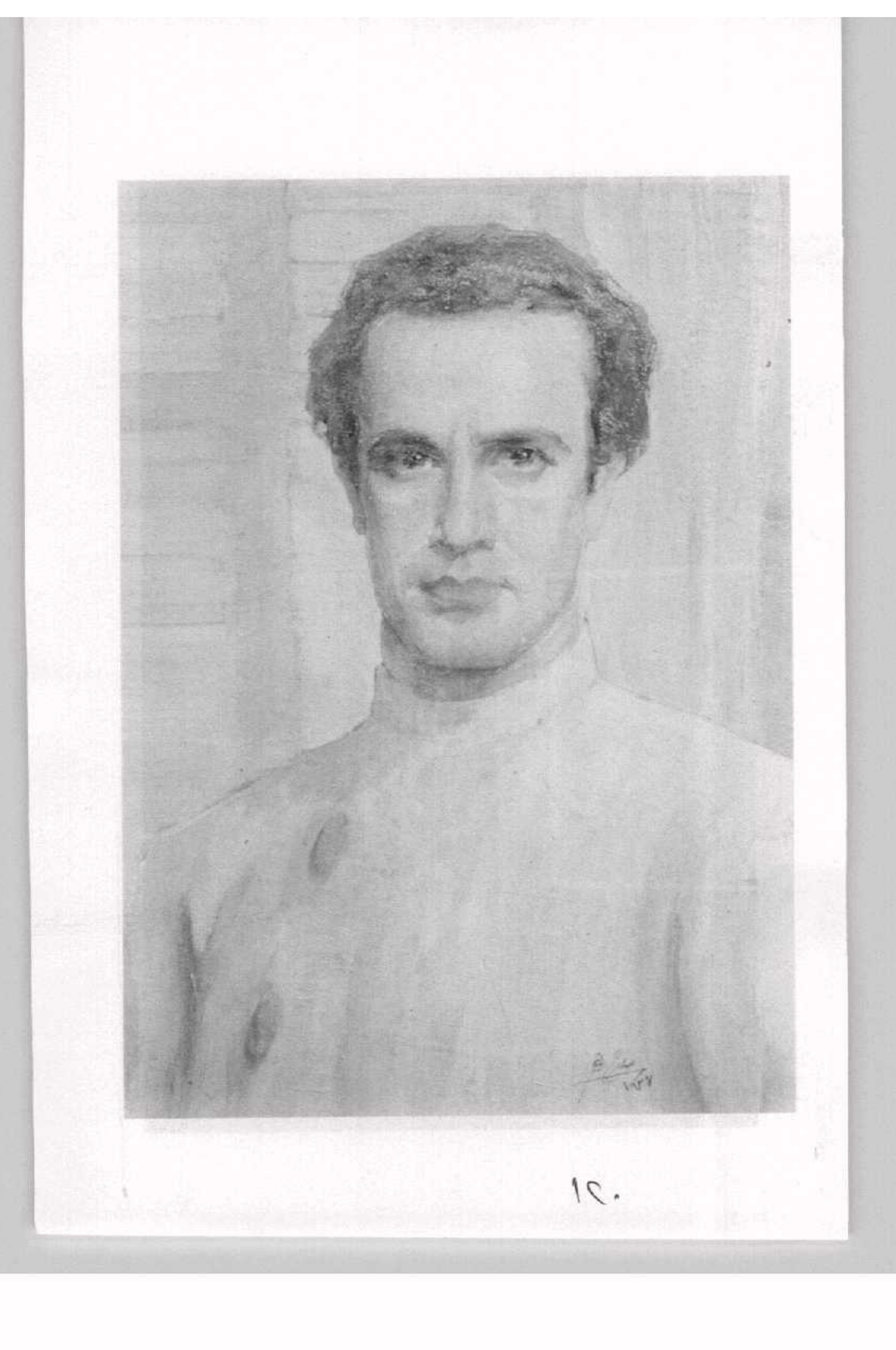
ومثال آخر عن الموسيقى حيث تركز الكاميرا على عبارة «الموسيقى هى إفراز الشعوب» فى الدقائق الأولى نسمع موسيقى هابطة ونشاز ثم يشرح المتخصص لماذا هذه الموسيقى سيئة وكيف يمكن علاجها والارتقاء بها ثم فى ربع ساعة أخيرة نسمع نماذج رائعة من الموسيقى ويقوم المتخصص بشرحها أيضًا كأن يفسر لماذا هى موسيقى جيدة.. ولماذا هى عظيمة كما يمكنه أن يشرح كيف نرتقى بالموسيقى ونجودها وذلك حتى لا يحدث إحباط للمشاهد أنا لا أنكر أن هناك برامج جيدة لكنى أريد أن نستغل خاصية الإيحاء الموجودة فى التليفزيون لنبنى حضارة عن طريق بناء ذوق وحواس الإنسان على أسس جمالية فيها رقى وسمو لذاته كإنسان.

المعادى فى ١٩٩٨م

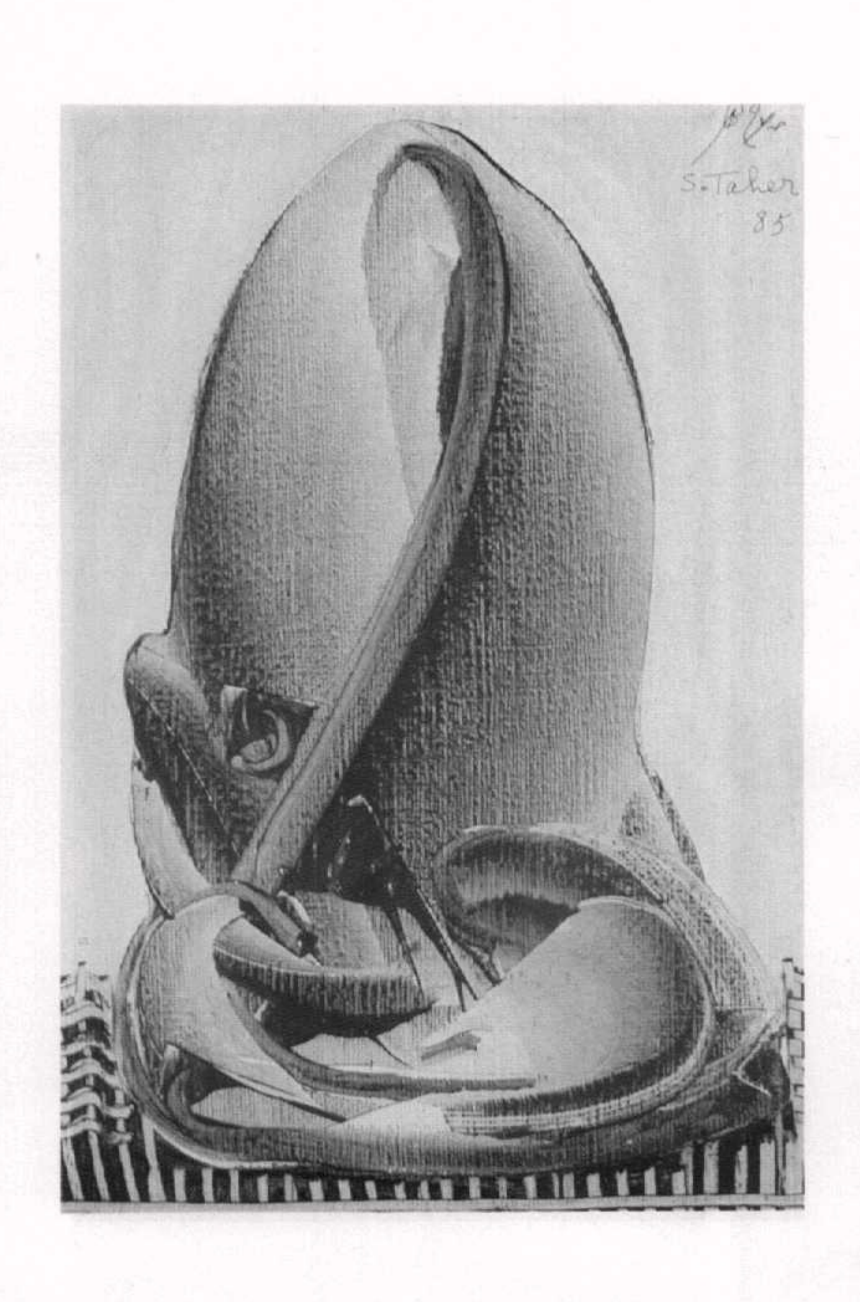
صلاح طاهر

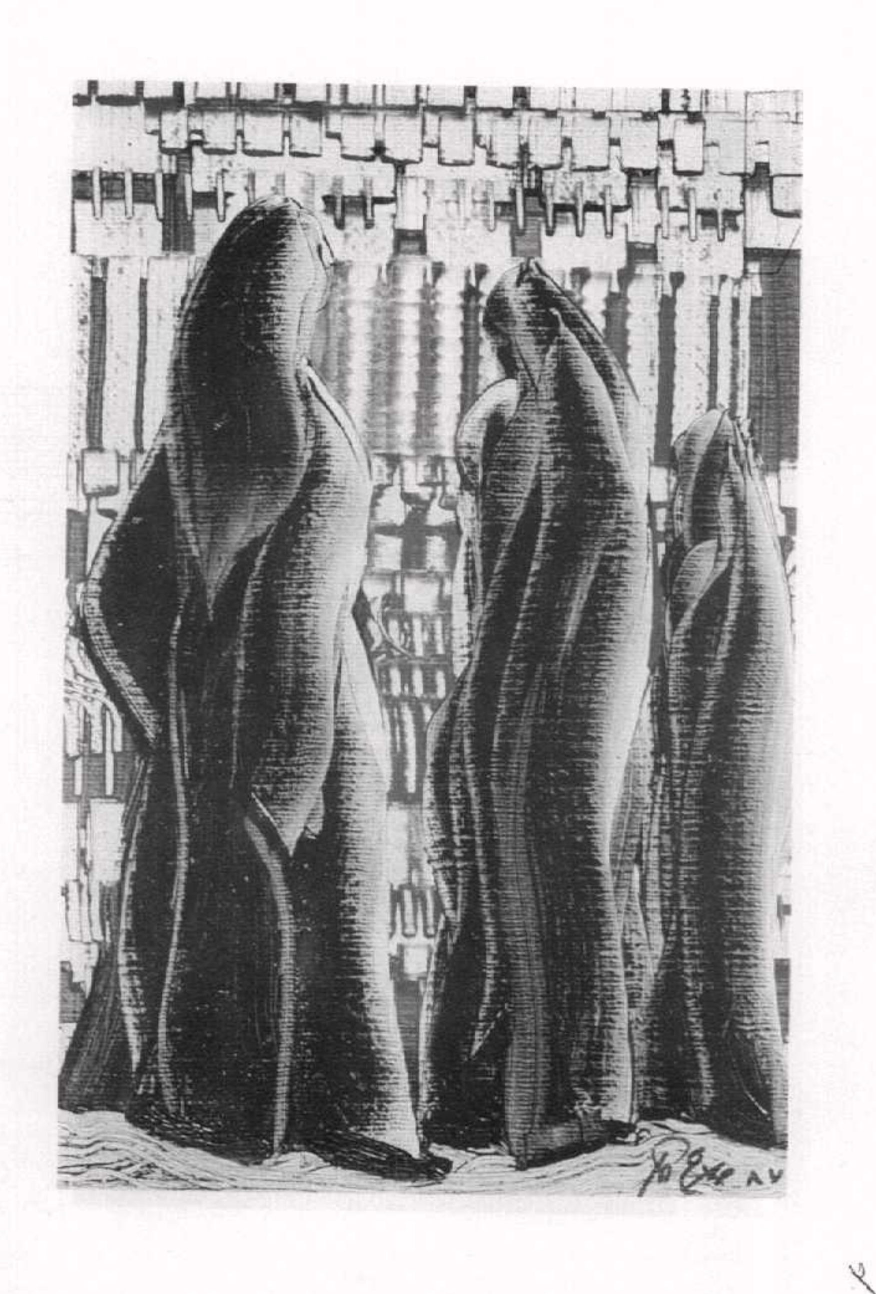
فيلسوف الألوان



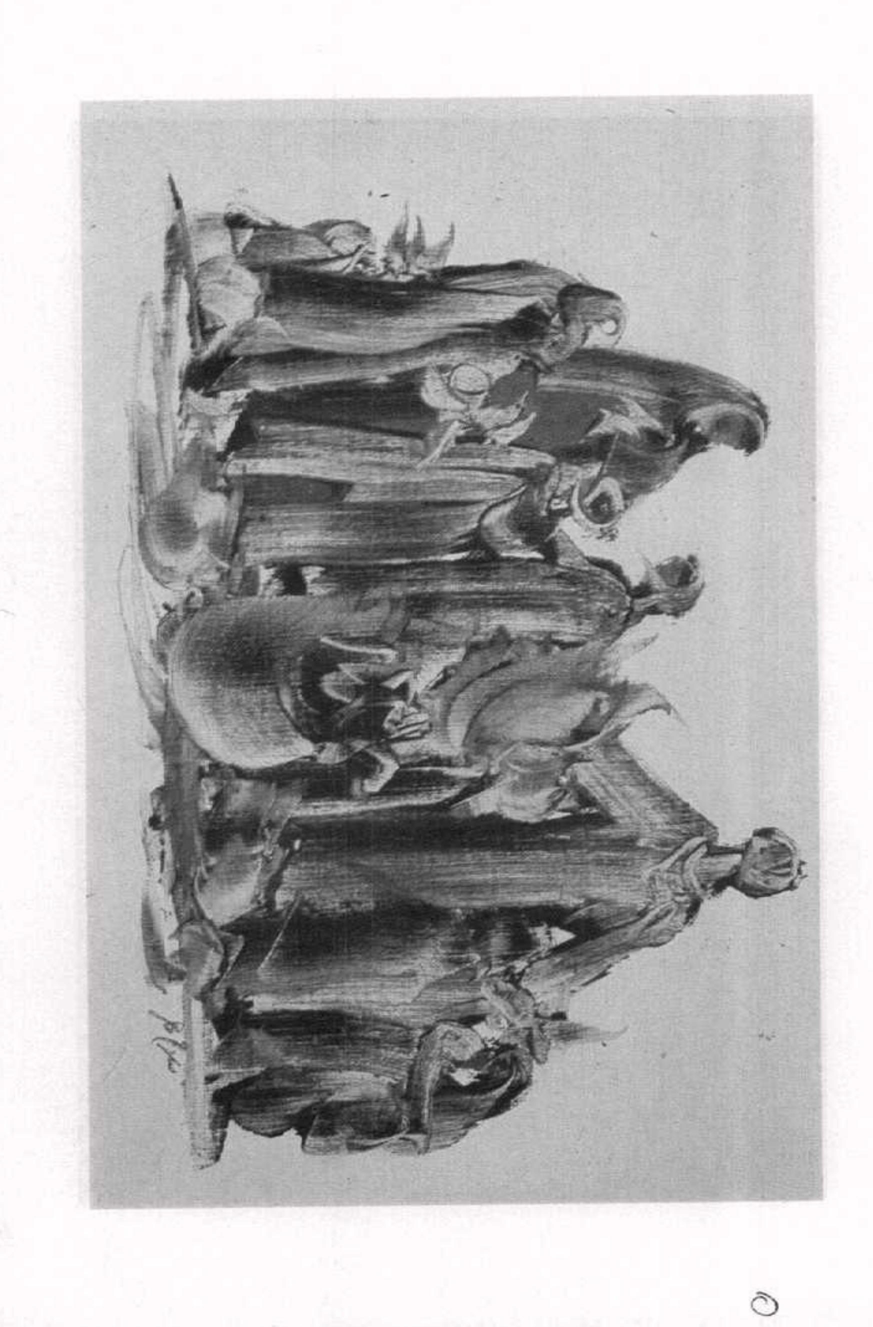



S.Taher


S.Taher
85

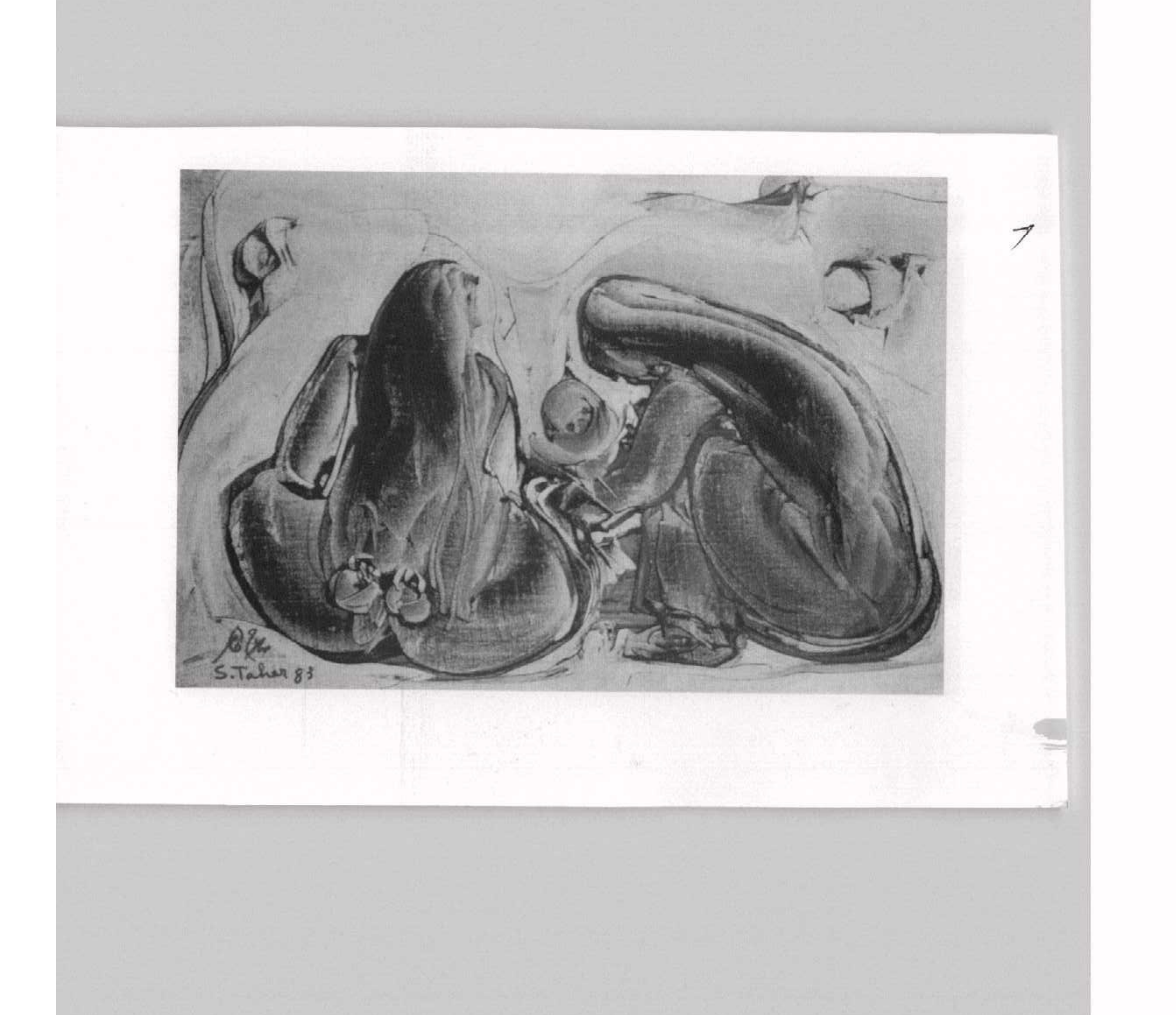


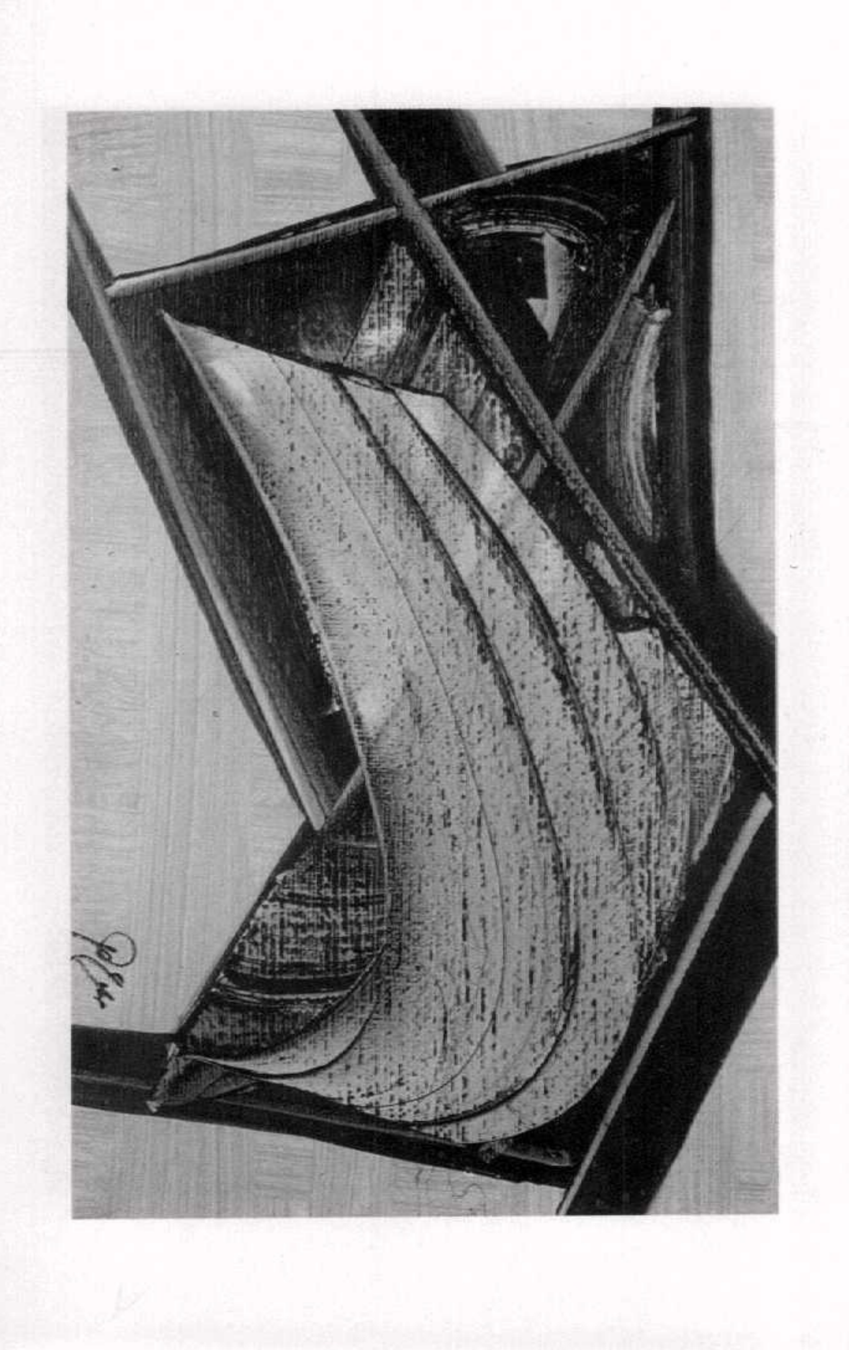




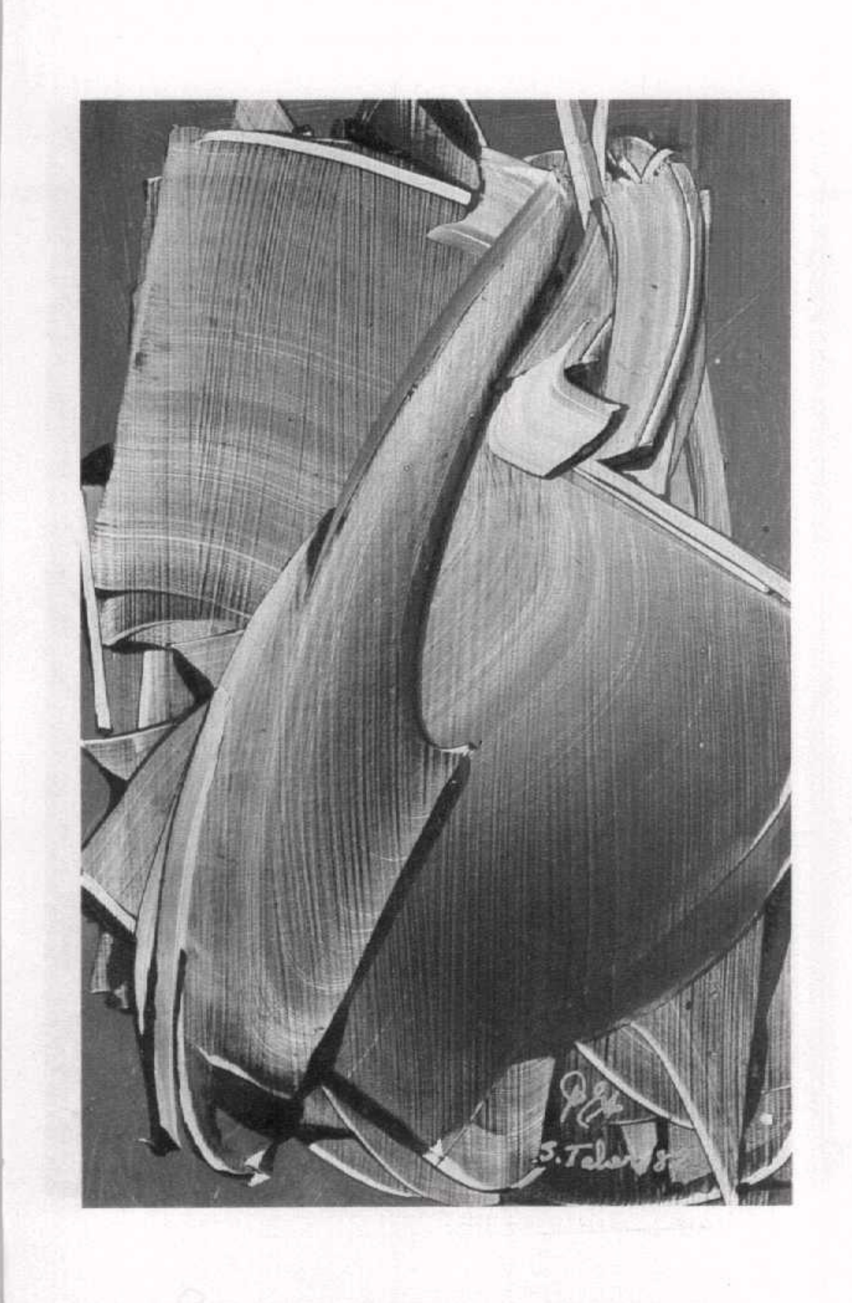


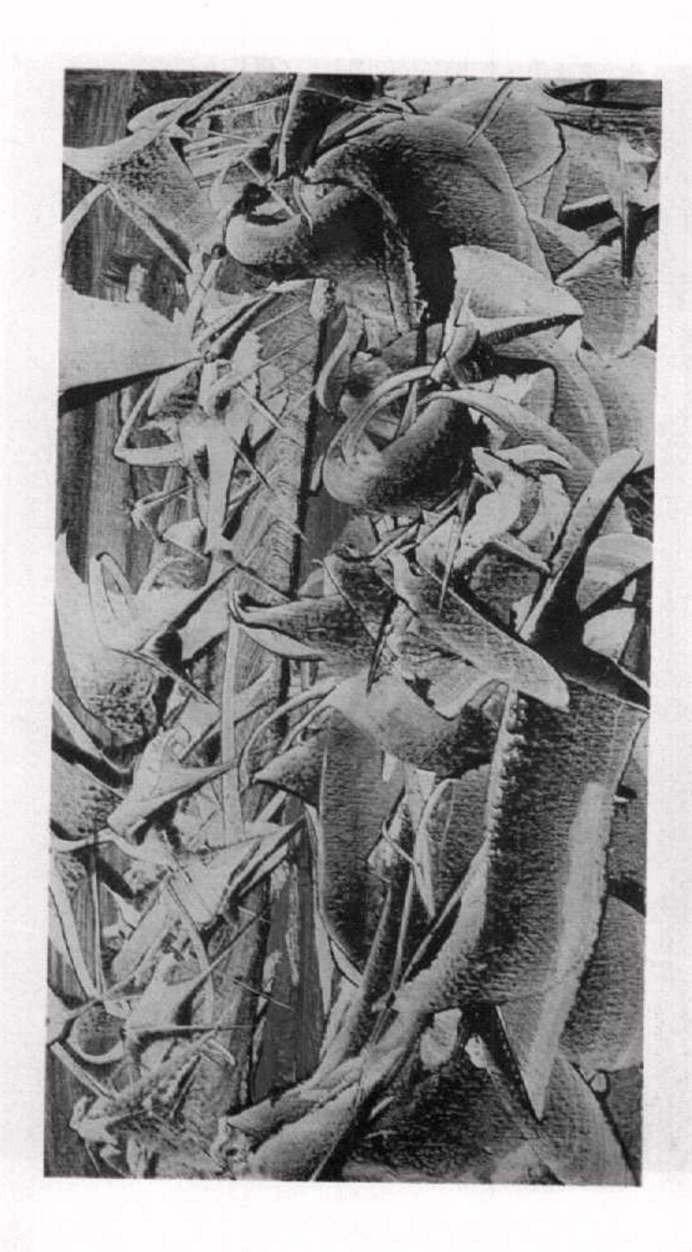
7













الأسم: چيلان حمزه

المؤهل: بكالوريوس كلية الإعلام ـ قسم اذاعة ـ دفعة ١٩٧٥ .

كتب للمؤلفه :

١ ـ قلب بلا قناع	روايه	دار الفكر العربى
	١٩٦٦م	ترجمت إلى الفرنسية
٢ ـ اللعبة والحقيقة	روايه	دار الفكر العربى
	١٩٧٠م	قررت على مكتبات المدارس
		نُفذت مسلسل إذاعى
٣ ـ الزوجه الهاربه	روايه	كتاب اليوم
	١٩٧٠م	أخرجت فيلم تليفزيونى
ألملم عقدى بغضب	نفس الروايه	وقد نشرت فى العراق بهذا الأسم
	١٩٧٠م	
٤ ـ قدر الآخرين	روايه	كتاب الأذاعة والتليفزيون
	١٩٧٤م	
٥ ـ زوج فى المزاد	روايه	كتاب الشعب
	١٩٧٥م	
٦ ـ مسافره مع الجراح	روايه	كتاب اليوم
	١٩٨١م	ترجمت إلى الانجليزية
٧ ـ الحبيبه	روايه	كتاب اليوم
	١٩٨٨م	
٨ ـ الأعمال الكامله	الجزء الأول	الهيئة المصرية العامة للكتاب
	١٩٩٢م	
٩ ـ كواليس راديو مونت كارلو	نشأة وتطور وتمويل	

	من خلال الكواليس ١٩٩٣م	الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٠ - المعجزه	قصص إسلامية قصيره من التراث ١٩٩٥م	الهيئة المصرية العامة للكتاب
١١ - حق ولدى فى الحياة	طريقة معاملة المعوق ذهنياً ١٩٩٥م	الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٢ - الأعمال الكاملة	الجزء الثانى ١٩٩٦م	الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٣ - جرح الحب	روايه ١٩٩٨م	كتاب اليوم
١٤ - صلاح طاهر فيلسوف الألوان	سيره ذاتيه ١٩٩٨م	الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٥ - ماجستير عن دور البرامج الثقافية فى التليفزيون المصرى فى التنمية الثقافية ١٩٩٦م.

١٦ - تُعد لبحث الدكتوراه عن تأثير التليفزيون على النشيئ والشباب.

رقم الايداع بدار الكتب ١٥٧٨٥ /١٩٩٨
I.S.B.N 977 - 01 - 5999 - 9

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب